

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٦٢٢]

رئيس التحرير: رجب البنا

تصميم الغلاف : **عزيزة مختار**

إبراهيم عبد العزيز

أوراق مجهولة..
للدكتور طه حسين

دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشـاء هـذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربيـة . وأن ينتفعوا ، وأن تـدعـوهـم هذه القـراءة إلى الاستزادة من الثقـافة ، والطموح إلى حياة عقليـة أرقى وأخصب من الحياة العقليـة التى نحيـاها .

طـه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

إهـــداء

إلى الأستاذ صبـرى العسكـرى
أديبا ومحاميا وصديقا ..

إبراهيم عبد العزيـز

أحاديث ومعارك

يرى طه حسين أن أحاديث رمضان هى ابتكار صحفى اتجهت إليه الصحف لتخفف عن قرائها وترضيهم وتعينهم على تحمل المشقة والجهد فى نهار رمضان، متجهة بهم إلى الخير فى شهر الخير منصرفة بهم عما يستوجب الانصراف عنه فى هذا الشهر الكريم .

وفى الوقت الذى تبحث فيه الصحف عن التيسير على قرائها فإنها تكلف الكُتاب حين ذلك عسرًا لكى يقدموا ما يرضى القراء خاصة إذا كان الحديث محددًا بمناسبة لها خصوصيتها كشهر رمضان فالقراء إذن هم كل شىء بالقياس إلى الكُتاب بل إن طه حسين يرى أنه « **يوشك الكُتّاب ألا يكونوا شيئًا بالقياس إلى القراء** » .

وكان طه حسين يعانى من أجل ذلك حين يكتب عناء شديدًا ، ويلقى من العنت الكثير فى سبيل هذا القارئ ، إنه يصارع خصمين عنيدين « الموضوع الذى يريد أن يكتب فيه ، **والقارئ الذى يريد أن يكتب له** » .

ورغم أن القارئ لا يمكن إحصاء ميوله وأهوائه وعواطفه وذوقه إلا أن طه حسين لم يكن يعبأ بكل ذلك ، فرغم اهتمامه بالقارئ

إلا أن اهتمامه بالموضوع كان أشد من اهتمامه بالقارئ وميوله ، لأنه لا يريد أن يهبط إلى القارئ مرضيا عواطفه وأهواءه وميوله ، إنه لا يريد إرضاءه وتملقه ليكتسب التصفيق والاستحسان ، لكنه يريد أن يرقى بالقارئ وبعقله وبفكره وبشعوره وبذوقه حتى لو اقتضى الأمر فى سبيل ذلك الهدف أن يصدم القارئ ، ولكنه واثق أنه سوف تأتى بعد الصدمة إفاقة ، وبعد الإفاقة يأتى التفكير ، وهو ما يريده طه حسين .. إنه يريد أن يثير فكر وعقل وقلب قارئه ولا يهمه بعد ذلك سخطه أو رضاه .

أفهناك اهتمام بالقارئ أكبر من هذا الاهتمام ؟ ! ومع ذلك ورغم كل ذلك فقد كان طه حسين يحسب حساب القارئ ، ليس من ناحية السخط أو الرضى ، ولكن من ناحية التأثر والتأثير الذى سيحدث له حين يطلع على فكرة أو اقتراح أو رأى يقوله أو يعلنه طه حسين ، لأنه على أساس ما سوف يلقيه على قارئه إما أن يصلح له حالا أو يفسد له حالاً ، إما أن يسلمه إلى خير أو يصرفه إلى شر ، فكم من أقلام أعلت شأن أمم وكم من أقلام هوت بأمم ، لذلك يقول طه حسين : **« الشيء الذى لا أشك فيه هو أنى لم أستطع فى يوم من الأيام أن أقدم على الكتابة إلا وأنا أحسب للقراء أشد الحساب وأعسره »** .

من أجل ذلك كان اعتذار طه حسين لصاحب جريدة « الجهاد »

عن كتابة « أحاديث رمضان » ولكن توفيق دياب كان يلح ويلح ، وما بين اعتذار طه حسين وإلحاح صاحب « الجهاد » ، كان تأخر خروج فكرة « أحاديث رمضان » إلى القراء واضطراب ظهورها فى بعض الأحيان ، لقد انتصر إلحاح الصحفى وإلا لو لم يصر الصحفى ويلح أشد الإلحاح لدرجة المطاردة والمحاصرة لمصدره ؛ لما كانت هناك صحافة تُقرأ ، ولا خبطات صحفية تنفرد بها صحيفة عن أخرى وتتميز بها جريدة عن منافستها . وكانت « أحاديث رمضان .. للدكتور طه حسين » هى من تلك الخبطات الصحفية التى لم تتكرر بعد ذلك ، فهى « أحاديث رمضان » الأولى والأخيرة لطه حسين .

وسوف نلاحظ حجم إعراض طه حسين عن مثل هذه النوعية من الأحاديث المرتبطة بزمن معين ومناسبة محددة ، وحجم إصرار توفيق دياب ، من خلال توقيت ظهور هذه الأحاديث إلى النور ، فلم يجرؤ صاحب « الجهاد » عن الإعلان عن هذه الأحاديث قبل بداية رمضان ولا أول يوم من رمضان لأن طه حسين لم يكن قد وعد بها ، ومن ثم لا نجد إلا إعلانا صغيرًا فى الصفحة الرابعة من جريدة « الجهاد » فى اليوم الثانى من رمضان يقول : « ابتداء من غد سيتفضل الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين على جريدة الجهاد وقرائها بأحاديث يومية تتعاقب ما تعاقبت ليالى رمضان ، فشكرًا للأستاذ باسم الجهاد وقرائه » .

وكأن فى كتابة هذا الإعلان المتوارى فى صفحة داخلية ما يعبر عن قلق صاحب الجهاد فربما أفلت منه طه حسين لسبب أو لآخر ، وهو يراه مضطرًا أشد الاضطرار لقبول مثل هذه العرض ، فيكون الحرج أقل وطأة مما لو كان الإعلان عن أحاديث طه حسين بشكل بارز فى الصفحة الأولى ، كما هو متوقع بالنسبة لصحيفة تريد جذب قرائها وربطهم بها طوال شهر كامل .

ولكن فيما يبدو فقد نجح الإلحاح الصحفى فى توريط طه حسين فى هذه الأحاديث التى لم يرغبها ، وإن كان القارئ لم يطالع الحديث الأول إلا فى اليوم الثالث من رمضان ١٣٥٤هـ ، الموافق للتاسع والعشرين من نوفمبر ١٩٣٥م وليس فى اليوم الأول من رمضان كما كان يجب أن يحدث ، ومن ثم فإن هذه الأحاديث لم تكتمل ثلاثين حلقة لأن طه حسين قد أنهاها بنهاية رمضان ، بل إنه غاب عن قراء هذه الأحاديث يومين آخرين غير اليومين السابقين على بداية كتابتها ، فقد توقف يومى ١٤ و٢٨ رمضان ، لتصبح أحاديث رمضان ستة وعشرين حديثا فقط ، وهذا يبين إلى أى مدى كان طه حسين يجد مشقة أى مشقة حين يُستكتب ، فضلاً عن إلزامه بنوعية معينة من الأحاديث ، وتوقيتات محددة لنشرها ، والأصعب من ذلك فوق ما تحتمل الطاقة أن يستمر فى مواصلة الكتابة لمدة شهر كامل كشهر رمضان الذى طُلب إليه أن يرتبط فيه مع القارئ بأحاديث تحمل عنوان الشهر الكريم ، وسنرى أن طه حسين قد حاول على قدر الاستطاعة ألا يلزم

نفسه بهذه الشروط ، وقبل الاستمرار فى مواصلة قصة هذه الأحاديث المجهولة النادرة سنقدم دليلا أكثر قوة على تمرد طه حسين على الظروف والناس الذين قد يضطرونه للعمل بشروطهم لا بشروطه هو ، والقصة تتعلق بالمؤتمر الإسلامى ، وأحد أعضاء مجلس قيادة الثورة البارزين .

كتب أنور السادات وزير الدولة وسكرتير عام المؤتمر الإسلامى إلى طه حسين سنة ١٩٥٥ يطلب منه التعاون لتحقيق أهداف المؤتمر ويقترح عليه وسائل هذا التعاون .

يقول السادات :

سيادة الأستاذ الدكتور طه حسين تحية واحترامًا .. وبعد – لما كان من أهم أهداف المؤتمر الإسلامى نشر الثقافة والوعى الإسلامى والدعوة لدين الله الحنيف ، ونظرًا لما للأفلام السينمائية من أثر كبير على مختلف الشعوب والأقوام وإن تباينت درجات ثقافتهم وطباعهم وعاداتهم ، لذلك ولما نعلمه عنكم من غيرة على الدين ومن استعداد دائم للمساهمة فى كل دعوة تهدف إلى نصرته ، فإنا نرجو مساعدتكم بتقديم ما ترونه صالحًا من قصص وموضوعات يمكن تحويلها إلى سيناريو لإخراجها فى أفلام سينمائية ، وسيادتكم تعلمون ما كان لأفلام الدعاية المسيحية كفيلم « الرداء » ، « واندركلوس » ، « والأسد » . وغيرها التى ظهرت فى العام الماضى من أثر كبير فى الرأى العام العالمى .

وإنى لكثير الأمل فى أن يتمكن المؤتمر بفضل معاونتكم القيمة من الوصول إلى النتائج المرجوة بإذن الله .

وتفضلوا سيادتكم بقبول أسمى عبارات الاحترام ..

قائمقام
أنور السادات
وزير الدولة وسكرتير عام
المؤتمر الإسلامى

تحريرا فى ٨ مايو سنة ١٩٥٥ م .

❑ ❑ ❑

ويبدو أن اقتراح السادات على طه حسين بتقديم قصص وموضوعات يمكن تحويلها إلى سيناريو لإخراجها فى أفلام سينمائية قد جاء نتيجة قرب العهد بتحويل « الوعد الحق » لطه حسين إلى سيناريو تم إخراجه فى فيلم سينمائى بعنوان « ظهور الإسلام » وقد لقى إقبالاً كبيرًا .

ويبدو أن رد طه حسين على أنور السادات قد جاء إيجابيا مع بعض التحفظات ، فقد استبعد مسألة القصص والسيناريو والأفلام ، ربما لتجربته المريرة مع قصة « الوعد الحق » التى حاول المخرج سرقتها ونسبة فضل إعدادها كفيلم إلى نفسه وإنكار فضل طه حسين ، لولا أنه حصل على حقوقه بحكم قضائى ، واقترح طه حسين على

أنور السادات المشاركة ببعض البحوث الإسلامية ، وليس بين أيدينا رد طه حسين على خطاب السادات ، ولكن بين أيدينا خطاب آخر للسادات يوضح محتواه مضمون رد طه حسين .

يقول السادات :

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المحترم الأستاذ الدكتور طه حسين .. تحية وتقديرًا وبعد .

فنشكركم على استعدادكم الكريم لمعاونتنا على أداء رسالتنا بكتابة بعض البحوث الخاصة بالإسلام .

وإنى أقترح أن تتكرموا بالكتابة فيما يأتى :

١ - القرآن والحديث دستور إصلاح شامل .

٢ - رسالة الإسلام وموضعها من سائر الرسالات .

٣ - حرية الإرادة وحرية الفكر فى الإسلام .

وتفضلوا فائق تحياتى

تحريرا فى ١٤ يوليو سنة ١٩٥٥ م

المخلص

قائمقام أنور السادات

السكرتير العام للمؤتمر الإسلامى

❑❑❑

ثم مضت سنوات توقف ، لم نسمع فيها شيئًا عما تم الاتفاق عليه بشأن مسألة التعاون بين طه حسين والمؤتمر الإسلامى ، طبقا لما اقترحه سكرتيره العام محمد أنور السادات ، ويبدو أن ذلك كان بسبب تلاحق الأحداث فى العام التالى وقيام العدوان الثلاثى ، وما ترتب عليه من نتائج وآثار ، لنعود فنعثر على معاودة الاتصالات بين المؤتمر الإسلامى وبين طه حسين ولكن هذه المرة ليس عن طريق أنور السادات وإنما عن طريق السكرير العام المساعد أحمد عبد الغفار ، ويبدو أنه تم الاتفاق على الموضوع وتفاصيله ، والذى تمثل فى أن يؤلف طه حسين كتابا اختير له عنوان « مرآة الإسلام » يتناول فيه طه حسين الموضوعات الآتية (طبقا لنص العقد المبرم بين الطرفين فى ١٣ يونية ١٩٥٧) :

١ – صورة للحياة الإسلامية أثناء ظهور الإسلام ممثلة فى سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وسيرة المسلمين أيامه .

٢ – صورة للإسلام بعد وفاة النبى ﷺ ممثلة فى حياة الخلفاء الراشدين ورعيتهم .

٣ – صورة للإسلام أيام الملك .

٤ – صورة للإسلام كما صوره العلماء المسلمون وغير المسلمين .

ويقع الكتاب فى ٣٠٠ صفحة من الحجم الكبير .

ولما كان العقد ينص على أن يسلم طه حسين أصول الكتاب فى موعد أقصاه ٣١ مارس سنة ١٩٥٨ ، فإذا لم يحدث ذلك فى الميعاد

المتفق عليه جاز فسخ هذا العقد ؛ على أنه من الممكن بموافقة كتابية من الطرف الأول (ممثل المؤتمر الإسلامى) أن يمد هذا الأجل بعد التاريخ المحدد فى حالات الضرورة القصوى .

وفيما يبدو فإن طه حسين على الرغم من المفاوضات والمراسلات التى تمت بين المؤتمر الإسلامى وبينه على مدى سنتين وانتهت بتوقيع عقد كتاب (مرآة الإسلام) إلا أن طه حسين كان فى قرارة نفسه غير مرتاح لهذا الاتفاق الذى اضطر إليه حرجا ربما من المؤتمر الإسلامى نفسه وحرجا ربما أكثر من أمين عام المؤتمر الإسلامى بصفته عضوا بارزا فى مجلس قيادة الثورة ، وطه حسين كان مؤيدا للثورة وأى اعتذار ربما يفسر تفسيرات قد تكون ضد طه حسين ، ومن ثم فقد مضى طه حسين موافقا على ما طلب منه تعاونا ومشاركة على تحقيق النتائج المرجو تحقيقها من أهداف المؤتمر الإسلامى الذى قصد سكرتيره العام إلى طه حسين قصدا ، فلم يجد طه حسين مفرا من الاضطرار إلى قبول هذه المشاركة بشروط المؤتمر لا بشروطه هو ، وعندما لاحت له الفرصة لكى يتخفف من هذا الاضطرار الذى اضطر إليه ، ويتخلص من هذا الحرج الذى دفع إليه فإنه لم يتردد فى استثمار شروط العقد الذى حدد موعدا لتسليم أصول الكتاب المتفق عليه ، فإذا لم يحدث جاز فسخ العقد ، ولكن طه حسين لم يبدأ بهذه الخطوة المكشوفة ولكنه مهد لها بخطوة أخف سمحت له بها بنود العقد ، الذى نص على إمكانية مد الأجل بعد التاريخ المحدد لتسليم الكتاب فى حالات الضرورة القصوى ، ومن ثم وجدنا طه حسين يبعث

بخطاب إلى السكرتير العام المساعد للمؤتمر الإسلامى فى اليوم التالى (١٩٥٨/٤/١) للأجل المحدد لتسليم أصول كتاب « مرآة الإسلام » ، يطلب فيه مد الأجل إلى آخر سبتمبر سنة ١٩٥٨ ، فجاءه الرد **« أتشرف بإبلاغكم أن المؤتمر يوافق على مد الأجل إلى هذه الغاية »** .

غير أنه رغم الاستجابة لكل طلبات طه حسين للوفاء بنصوص العقد المبرم بينه وبين المؤتمر الإسلامى إلا أنه كان مصمما فى أعماقه على الوصول إلى غاية أرادها ، ونية انتواها بفسخ هذا العقد انطلاقا من إيمانه بأن الكاتب لا يستكتب بشروط ولا يقيد بموضوعات ، ولا يلزم بمواعيد اعتقادا منه ويقينا أن الكاتب حر يكتب ما يريد متى شاء وأينما شاء ، ولهذا نجده قبل آخر يوم من المهلة الجديدة التى تمت الموافقة له عليها لتسليم أصول الكتاب المتفق عليه ، قد أملى هذا الخطاب الذى وصل به إلى تحقيق حريته ككاتب حر يكتب ما يحب بشروطه ، لا كما يحب الآخرون بشروطهم ، حتى ولو كانوا يمثلون جهة رفيعة القدر والمستوى كالمؤتمر الإسلامى ، وحتى لو كان ممثلوه أعضاء بارزين فى مجلس قيادة « الثورة » التى لم يكن أحد يجرؤ على أن يرد لها ولا لأحد من أعضائها ولا حتى لأصغر مسئول متصل بها طلبا وإلا تعرض لما تعرض له آخرون تجرءوا على الكلام . إذن فلنقرأ خطاب طه حسين الذى أعلن فيه أنه كاتب حر بشروطه هو لا بشروط غيره .

يقول :

السيد المحترم السكرتير المساعد للمؤتمر الإسلامى .

أتشرف بإبلاغكم أن عقدا كان قد تم توقيعه بين المؤتمر وبينى على أن أؤلف له كتابا اسمه « مرآة الإسلام » يقع فى ثلاثمائة صفحة ، ويصور حياة المسلمين أيام النبى ﷺ وبعده على شروط تجدونها فى نسخة العقد الموجود لديكم .

ونظرا لأنى قد أمليت الكتاب فلم يأت موافقا للشروط المنصوصة فى العقد لأنى لم أتعود أن أكتب كتبا مشروطة .

ونظرا لأن الكتاب الملحق بهذا العقد والمؤرخ فى ٨ أبريل ١٩٥٨ قد أجل تسليم الكتاب إلى ثلاثين سبتمبر سنة ١٩٥٨ ، فإنى أرجو أن تتفضلوا باعتبار العقد مفسوخا لأنى أوثر أن أنشر كتبى كما أحب ، ولأن الكتاب كما قلت آنفا لا يحقق الشروط التى اتفقنا عليها .

وتفضلوا بقبول أصدق تحياتى ..

٢٩ سبتمبر ٥٨ .

ونشر طه حسين كتابه « مرآة الإسلام » بعد ذلك فى دار المعارف ١٩٥٩ كما يحب وكما يريد .

هذه القصة بما تحمل من جدة وطرافة تعطينا صورة عملية وواقعية على مزاج طه حسين واحتياله رغم كل الظروف على أن يكون هو طه حسين نفسه ، طه حسين المفكر الذى لا يحرك فكره إلا فكره

نفسه لا أفكار الآخرين ، فهو كاتب نفسه لا كاتب الآخرين ، مرآة نفسه لا مرآة الآخرين ، ومن هنا كان إصراره دائما على أن يكتب بقلمه من إملائه لا بقلم أحد ولا بإملاء أحد ، وهذا يقترب بنا من حكايته مع « أحاديث رمضان » ، والتى تأتى تأكيدا على أن طه حسين لا يكتب ما يملى عليه بل يكتب ما تمليه عليه نفسه أو ما يمليه هو على نفسه ، لأنه لم يتعود أن يكتب إلا ما يريده بل ما تفرضه عليه إرادة الكتابة نفسها ، ومن ثم فإننا سوف نلاحظ أنه رغم قبول طه حسين بكتابة « أحاديث رمضان » واضطراره لإملائها تحت الإلحاح الصحفى من صاحب جريدة « الجهاد » فإنه لم ينهج نهج من يكتب « أحاديث رمضان » كما يوحى العنوان الذى جعله ثابتا على أحاديثه طوال الشهر الكريم ، فلم يكن للقارئ فى أغلب الأحيان من « أحاديث رمضان للدكتور طه حسين » سوى العنوان فقط ، وتحت العنوان كتب العميد فى موضوعات شتى ، أو كما يقول :

« فأنا لا أفهم أحاديث رمضان إلا على هذا النحو المتفرق الذى لا حظ له من وحدة ولا من نظام » .

لهذا سوف نجد فى نهاية الأمر أن طه حسين قد كتب ما يرضيه لا ما يرضى صاحب جريدة « الجهاد » ولا ما يرضى قارئه ، ولذلك سنلاحظ أنه فى أول أحاديثه الرمضانية على هذا النحو الذى يفهمه ، كان مدركا لهذا الأمر متنبها له حين يخاطب قارئه قائلا له فى عبارة

ساخرة تثير الابتسام لما لها من دلالة واضحة على حسن استثمار الموقف فى الشهر الكريم قاطعا الطريق على القارئ الذى « **يود لو يستطيع أن يسخط على الإطالة والمطيلين وعلى الثرثرة والثرثارين ، ولكنه لا يستطيع أن يسخط لأن الصوم يعصمنى من سخطه ، فليعتصم هو بالصبر إذن** » وبذلك يكون طه حسين قد نفذ من سخط القارئ رغم اعتقاد طه حسين أنه يكتب ما يثير قارئه ، ولكن شهر رمضان ينقذه من هذا السخط ، وبذلك يكون طه حسين قد فاز من شهر رمضان باتقاء غضب القارئ ويكون القارئ نفسه قد فاز بالصبر والثواب على هذا الصبر فى شهر الصبر .

❑ ❑ ❑

ولأن طه حسين كان مضطرا لهذه الأحاديث ورغم أنه أملاها كما يريد لا كما يريد طالبها منه ، إلا أنه لم يكرر هذه الأحاديث بعد ذلك أبدا كما أنه لم يهتم بجمعها فى كتاب على عادته حين يريد الاحتفاظ بمقالاته بين دفتى كتاب ، ربما لأنه رأى أنها لا تستحق جمعها فى كتاب ، إلا أننا نرى الآن بعد ٦٢ سنة من نشر هذه الأحاديث المجهولة أنها جديرة بأن تجمع فى كتاب جديد يضاف إلى تراث طه حسين ، وحسبنا أن هذه الأحاديث لطه حسين ، وإذا كان هو قد تواضع عن تقديمها لقارئه فى كتاب ، فإننا نفخر أن نقدمها اليوم فى كتاب تحية لذكرى عميد الأدب العربى ، وقبل أن

أتركك للاستمتاع بهذه الأحاديث لك عليَّ حق واجب أن أقدمها لك وأنت تعلم الظروف التى قدمت فيها فى منتصف الثلاثينيات من هذا القرن ، وخاصة أنها كانت سببا فى سخط الساسة والسياسيين ، والقراء المطلعين عليها ، رغم أن طه حسين فى هذه الأحاديث قد انصرف عن السياسة والسياسيين ، وكان هذا الانصراف هو الذى عرضه لذلك السخط .

❑❑❑

وسوف نلاحظ من أمر طه حسين عجبا فيما بين موقفه من السياسة سنة ٣٤ ، وموقفه من السياسة سنة ٣٥ ، ففى السنة السابقة كان يكتب المقالات النارية التى تندد بالإنجليز وأتباع الإنجليز والحكومات التى يسيرها الإنجليز ، كان ذلك ضمن الفترة التى أخرج فيها من الجامعة منذ شهر مارس ١٩٣٢ لرفضه سياسة وزارة صدقى باشا الذى أراد احتواءه ، واستكتابه فى جريدته الناطقة باسم « حزب الشعب » ، وهو ما يؤكد موقف طه حسين الدائم من أنه لا يكتب لأحد ، أو حينما يريد أحد ، حتى لو كلفه ذلك قطع سبل العيش عليه ، وهو ما حدث بعد ذلك حين انتهز صدقى باشا فرصة رفض طه حسين منح الدكتوراة الفخرية من كلية الآداب لبعض السياسيين الذين رشحتهم الحكومة لهذا الغرض ، إكبارا من العميد للدكتوراه حتى ولو كانت فخرية من أن تهان أو تفقد قيمتها حين تعطى لمن

هب ودب ، لمن يستحق أو لا يستحق بغرض المجاملة ، فما بالك إذا كانت لأغراض سياسية ، وطه حسين نفسه كان حريصا على أن ينأى بالجامعة والجامعيين عن السياسة والسياسيين ، وكانت النتيجة أن طه حسين قد أحيل إلى التقاعد ، وبدأ بعد ذلك يكتب فى الصحف حتى أعيد إلى الجامعة فى شهر ديسمبر ١٩٣٤ أستاذا بكلية الآداب وإن لم تنقطع علاقته بالصحف إلا أن علاقته بالسياسة على إثر ذلك انقطعت أوكادت ، فلم نشهد له كتابات سياسية ، وإنما انصرف إلى الأدب فأخرج فى سنة ١٩٣٥ مجموعة من الكتب فى هذه السنة وحدها ، وهى (من بعيد ، أديب ، الحياة الأدبية فى جزيرة العرب – والذى أسماه بعد ذلك « ألوان » ، مع أبى العلاء فى سجنه) .

ويبدو أن ابتعاد طه حسين عن السياسة فى تلك الفترة جاءت فضلا عن عودته للجامعة ، إلى علاقته بالوفد وزعيمه مصطفى النحاس الذى كان يؤيد وزارة « نسيم باشا » ، التى ورثت التركة المثقلة لحكومتين سيئتى السمعة (صدقى ، وعبد الفتاح يحيى) وكان عليها أن تزيل الآثار السيئة التى تركتها هاتان الحكومتان وأبرزها عودة دستور ١٩٢٣ ، وزاد من وطأة الضغط على حكومة نسيم باشا ، تدخل انجلترا واعتدائها على سيادة الأمة بتعطيل الدستور الذى ارتضته الأمة ، ووسائل العنف التى استخدمها « الكنستبلات » الإنجليز والبوليس فى قمع المظاهرات ، ولذلك كانت الاحتجاجات الصارخة

والإضرابات والمظاهرات تحمل الوزارة القائمة مسئولية ما يحدث ، ويطلبون إليها بعد تكرار فشلها وما أصاب البلاد أن تتخلى عن كراسيها ، ذلك فى الوقت الذى كان الوفد وزعيمه النحاس باشا يؤيدان هذه الحكومة باعتبار أنها تريد عودة الدستور ، ولكن إرادتها وحدها مع معارضة الإنجليز لا تكفى إلا لتلقى إهانات جديدة من الإنجليز ، حيث لا تستطيع أية حكومة أن تفعل شيئًا إلا بإرادة الإنجليز وموافقتهم ، وفيما يبدو فإن طه حسين كان مؤيدا لموقف الوفد وزعيمه ، ولذلك فإنه لم يهاجم حكومة نسيم باشا ، والتزم الصمت والابتعاد عن السياسة والسياسيين .. ولنستمع إلى بعض ما جاء فى خطبة الزعيم مصطفى النحاس بعيد الجهاد فى ١٣ نوفمبر ١٩٣٥ لنعيش مناخ تلك الفترة فيقول : **كان عهدًا مشئومًا أينما ألبسوه ظاهر الحياة الدستورية بعد أن ألغوا دستور الأمة بإصدار دستور أبتر ، تعلو فيه كلمة الوزارة وتهزل كلمة النواب ، وبإجراء انتخابات باطلة أساسها الإغراء والإكراه ، وقوامها الرشوة والتزوير ، وتحت ستار الدستور والبرلمان طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد : حريات مسلوبة ، وكرامات مغصوبة ، وشراك منصوبة ، وأقلام مقيدة ، وصحف مصفدة ، واجراءات مشددة ، وإجتماعات تمنع ، ومظاهرات تقمع . وتشريعات استثنائية وأحكام أشبه بالعرفية ، جيوش تحشد للإكراه ، وأرواح تحصد بالظلم ولا حول ولا قوة إلا بالله ..**

عيون ترصد للإيذاء ، وتهم تلفق للأبرياء ، أحزاب تصطنع بهمة للفراغ من هذه المهمة . مظالم قاسية ، ومفاسد فاشية ، وضمائر فانية . حوادث تعذيب وحشية ، وإجرام فى إجرام يحفظ النفوس ويدفعها للانتقام ..

وبالجملة ظلم واستبداد وفوضى وفساد » ، ورغم إعلان الإنجليز أن أمر الدستور المصرى متروك للملك وشعبه وحدهما ، إلا أن الإنجليز أنفسهم وقفوا حجر عثرة فى سبيل عودة الدستور ، واحتجت وزارة نسيم باشا كتابة على تدخل الإنجليز غير المشروع فى أمر الدستور ، وزاد الطين بلة أن وزير الخارجية البريطانية السير صمويل قد صرح بأنه لا يعارض عودة الدستور .. ويضيف « **ولكننا نصحنا بأن لا يعاد دستور ٢٣ ولا دستور ٣٠ ، إذ قد ظهر أن الأول غير صالح للعمل ، وأن الآخر لا ينطبق على رغبات الأمة »** ..

أما فيما يتعلق بوضع مصر من بريطانيا فى تلك الفترة فقد أشعل وزير خارجية بريطانيا العظمى المشاعر حين صرح بأنه « **لا اتفاق بيننا فى الظروف الحاضرة .. ولا اتفاق حتى يئون الأوان » إذن فلا دستور ولا معاهدة ..**

واشتعلت مصر كلها احتجاجًا على إهانة بريطانيا لمصر ، وانتشرت المظاهرات والإضرابات وسقط شهداء ، ومن هنا ظهر الاحتجاج على

موقف طه حسين وصمته ، وقد لخصت الموقف كله فى سخرية بالغة صحيفة « أبو الهول » فى عددها بتاريخ ٦ يناير ١٩٣٦ أى بعد أن هدأت الأمور وعاد الدستور فقالت : « **لزم الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب ، ومن رجالها المبرزين ، الصمت ، والجامعة تعصف بها الأحداث ، وشبابها الذى أضرب عن تلقى دروسه غداة إرغام الدكتور على التخلى عن منصبه فى الجامعة ، والذى بادر فحمله على الأعناق يوم عاد إليها ، نقول إن هذا الشباب الذى قدر فى الدكتور فضله وأدبه ، قد ذهبت ضحاياه فى الإضراب الأخير راضية مرضية ، وحصد أرواحه الرصاص والعصى الغليظة ، وترقبنا أن نسمع كلمة من الدكتور طه ، أو نرى أثرا لاحتجاج الدكتور طه ، ولكن سيدنا الدكتور لزم مقر داره ، واكتفى بصمت المتفرج الذى يرى ولا يتكلم ، ويؤثر استخدام العين ، وتعطيل الشفاة ..**

نحن لا نقول : إن الدكتور لم تمتلئ نفسه ألما وغما وهو يرى أبناءه من شباب الجامعة يطيح برءوسهم الرصاص ، وأنه وهو الثائر على كل مظهر من مظاهر الاستبداد والتقيد حتى فى المسائل الفكرية ، والنظريات العلمية ، يهون عليه أن تسيل هذه الدماء وتتناثر هذه الأشياء ، وتطوى صفحات هؤلاء الأحياء ، فقد يكون الدكتور ثار وقد يكون احتج ، وقد يكون أدى واجبه بما يرضى ضميره ويريح نفسه ، ومن يدرى فربما لقى الدكتور وزير

المعارف ، إذ تربطه به روابط صداقة شخصية ، وتحمس فى احتجاجه حتى أثار كوامن العطف فى نفس الوزير ، وأسال عبراته ودموعه ، وقد يكون هذا حدث وأكثر منه ، ولكننا معذورون إذ لم يصل إلينا خبره ، وليس لنا به علم ، بل إن المقربين الأوفياء من طلبة الدكتور لم يفصحوا عن هذا الذى منع الدكتور تواضعه من إعلانه ، فنحن معذورون إذن إذا قابلنا موقف الدكتور من ضحايا الشباب ومن أبنائه طلبة الجامعة دهشين مستنكرين متسائلين منكرين » ..

❑❑❑

ولطه حسين من السياسة والجامعة وطلبتها وأساتذتها موقف ينأى بالجميع عن السياسة ، بل إن تلميذه الكاتب الكبير حافظ محمود قد ذكر لى أنه وزملاءه الطلبة المتحمسين « **قد فكرنا فى الترويج لمشروع القرش ، بأن تصدر أعداد خاصة من الجرائد حول هذا الموضوع ، وذهبنا من أجل ذلك إلى كبار الكتاب للحصول على مقالاتهم ومنهم طه حسين ولكنه هاجمنا هجوما عنيفا وقال : إن هذا المشروع هو هروب للطلبة من النشاط العلمى الذى يجب ألا يقضوا وقتهم إلا من أجله » ..**

وكان طه حسين يتطابق فى موقفه مع موقف أستاذه لطفى السيد الذى كان يرى أنه من الخير للجامعة وللجامعيين الابتعاد عن السياسة والسياسيين ، وأن الجامعة قد فسدت يوم أن اخترقتها الأحزاب

فقسمتها شيعا وأحزابا ، وأبعدتها عن مهمتها العلمية التى وجدت من أجلها ، أو كما يقول لطفى السيد فى مذكراته « **فى ذلك الحين اشتد الخصام بين طلبة الجامعة على المسائل الحزبية ، لأن الأحزاب كانت تتصل اتصالاً يضر بالإخاء الجامعى ويسقط قيمة الشمائل الجامعية** »..

ورغم أن أحاديث رمضان للدكتور طه حسين ، قد جاءت فى ظاهرها خالية من السياسة والسياسيين أو كما أوهمنا ، أو حاول أن يوهمنا بذلك إلا أنه وهو يتحدث حديث الأدب كان يتعرض للسياسة فى عصر غير العصر ، وزمن غير الزمن ، ودولة غير الدولة ولكننى أعتقد وسوف تعتقدون معى أن تعرضه هذا كان مقصودًا لذاته لأنه يلقى بظلاله على واقع السياسة والسياسيين فى مصر آنذاك ، بل إن حافز طه حسين لكتبه الإسلامية كان سياسيا لأنه من خلال حديثه عن العصر الإسلامى ورموزه كان يطمع للتمثل فى عصره الحاضر بهذا العصر وفضائله ونزاهة رجاله ، وتصديهم للظلم والقهر وصولاً إلى مجتمع الكفاية والعدل ..

❑ ❑ ❑

ورغم محاولة طه حسين التأكيد على أنه حريص على تجنيب قرائه الشر ، مباعدا بينهم وبين المكروه مما حمله على أن يتجنب الكتابة السياسية فى رمضان ، فإنه فى نفس الوقت كان يدلى برأيه فى

السياسة . فى تلك الأيام حين يقول : « **إنها مثيرة للغيظ ، هائجة للحفائظ ، مغرية بالشر** » ..

ثم يطلب الفتوى من الشيوخ إجابة على سؤال ساخر لا يخطر على بال أحد غير طه حسين ليطرحه هذا الطرح الممعن فى السخرية والاستهزاء فيقول : « **ماذا يرى شيوخنا أثابهم الله لو أن مستفتيا سألهم عن الكتابة فى السياسة أثناء شهر الصوم كما تعود الناس أن يكتبوا فيها لا فى مصر وحدها بل فى مصر وغيرها من البلاد الأوربية الراقية – أمباحة هى ؟ أم محظورة ؟ أم مكروهة ؟** » ..

وقليلا ماتخلو مقالات طه حسين الرمضانية من إشارة إلى خلل سياسى ، أو اجتماعى ، أو علمى أو خلقى ، مما يدل على وعيه ، وقصده أن يبث الناس الوعى ويحفز مجتمعه نحو الخير لا كما أراد أن يوهمنا بتفاهة ما يقول ، انظر إلى روايته عن الشاعر « إبان بن عبد الحميد » ..

فى عصر هارون الرشيد ، وكان متشيعًا للعلويين يراهم أحق بالخلافة من بنى العباس ، ولكنه من أجل مطامحه ومطامعه ضحى بمبادئه عملا بقول الفضل بن يحيى البرمكى « كلنا يفعل ما لا يستحل » ..

فقد باع الشاعر (أبان) مبادئه فغير رأيه فى الدين والسياسة ، أليس فى ذلك إشارة واضحة من طه حسين إلى بعض السياسيين فى

عصره بل وفى أى عصر حين يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يقولون ، ويغيرون جلودهم من أجل منافعهم ومصالحهم الشخصية ..

وفى موضع آخر يرى طه حسين أنه يجب على الإنسان ألا يتغير حتى بعد أن يصبح موظفًا كبيرًا ، فهو يقول : « **فكما أنى أكره أن أذل للرؤساء مهما يكونوا فإنى أكره أن يذل لى المرءوسون مهما يكونوا** » ..

وحين يتحدث عن موقف « برنارد شو » من استثناء إيطاليا له و« لشكسبير » باعتبار أن الأول يخاصم الحكومات الإنجليزية ، لذلك فهو ليس عدوًّا لإيطاليا ولا مسيئا إليها ، فإن « برنارد شو » لم يسعد بهذا الاستثناء بل رفضه واستنكره وأمر وكيله برفض الإذن بتمثيل أى قصة من قصصه مادام الأدب الإنجليزى التمثيلى مقاطعا فى إيطاليا ..

ولم يقف طه حسين عند حد ذكر هذه القصة لقرائه بل علق عليها تعليقا ذكيًّا توجه به إلى كل المتعاملين من المصريين مع الإنجليز ، فتساءل « **أفليس فى هذا الموقف الذى وقفه برنارد شو عبرة للوطنية المصرية الناشئة أمام الوطنية الإنجليزية القديمة ؟** » ..

ولعل طه حسين كان يشير بذلك إلى بعض المصريين الذين يتواطئون مع الإنجليز ناسين أو متناسين وطنيتهم ، كما كشفت عن ذلك الوثائق

البريطانية بعد ذلك عن بعض السياسيين الذين كانوا من زبائن التقارير البريطانية ر ..

ولا يعظم طه حسين أحدا قدر تعظيمه للشباب الذين يرى فيهم « **قلوبا أكرم جوهرًا ، وطباعا أصفى مزاجًا مما نستطيع أن نصورها** » ..

وحين توقف طه حسين أمام ما تضطرم به البلاد من هموم وثورة أشعلها الطلاب ، لم يدخل فى التفصيلات وإنما كان شاغله أن يتم إعداد هؤلاء الطلاب إعدادًا جيدًا غذائيًّا وصحيًّا ورياضيًّا بما يقوى عقولهم وأجسامهم وحياتهم الاجتماعية ..

ويطلق كلمة نقرؤها الآن كحكمة بالغة حين يقول : « إن القلق سبيل العمل ، كما أن الشك سبيل اليقين » .. و« **إن السخط على حالنا الحاضرة هو أول العمل لإصلاح حالنا المستقبلة** » ..

❑ ❑ ❑

ثم يلمس طه حسين وترًا حساسًا مسًّا غير مباشر عندما يقدم نموذجًا لراهب فرنسى لم يعتزل الناس فى الدير ، منصرفًا إلى الدين والعبادة ، ولكنه اكتشف طريقة للكشف عن الآثار عن طريق التصوير من خلال الطيران ، فإذا هو يكشف عن آثار وآبار ، مفيدا الناس فى حياتهم الحاضرة وحياتهم الماضية ، وحين يقدم طه حسين هذا النموذج لرجل دين أوربى فإنه يضعه أمام رجل الدين الإسلامى متمنيًا أن يرى

« شيوخنا ينقبون فى الأرض ويصعدون فى الجبال ويطيرون فى السماء » ..

ويذكر طه حسين أنه قد تحدث فى مثل هذا الموضوع منذ سنوات ويعد بأنه لن يمل الحديث فيه داعيًا رجال الدين ألا يجعلوا من الدين مجرد طقوس وعبادات .. وإنما هو علم وعمل ، لذلك يريد من شيوخنا أن يكونوا طلائع الناس فى العلم والعمل ، وهو حين يطالبهم بهذا الارتقاء فى مهمتهم نراه مدركا لسوء ظنهم فيه قائلاً : **« إنهم أحرار فى أن يصدقونى أو يسيئوا الظن بما أقول فالله أشهد أنى لا أسألهم حبًا بحب ولا نصحًا بنصح »** ..

ومضى طه حسين فى خطته مطالبًا بأن يواكب الأزهر تقدم النهضة العلمية ، وأن يطلع طلابه على فروع العلم الأخرى ، ولقد حاول طه حسين بالفعل حين كان عميدًا لكلية الآداب أن يحول هذه الأفكار التى ينادى بها إلى واقع عملى حين فتح للأزهريين وطلاب دار العلوم ، بابًا إلى كلية الآداب ، لكى يدعموا ثقافتهم ويوسعوا مداركهم ، ولكن أهل السوء قطعوا الطريق على هذه التجربة فلم تتم ..

وقد وجدت دعوة طه حسين إلى الارتقاء بالأزهر ورجاله وعلومه ، صدى أرضى البعض وأسخط البعض الآخر ، أما الذين رضوا فقالوا إن طه حسين بدعوته هذه إنما يحيى ما كان عليه رجال الدين عبر تاريخهم فكانوا كيميائيين وفلكيين وأدباء .. الخ ، وقال قائلهم « محمد

عبد السلام القبانى مدرس بكلية الشريعة « لطه حسين : ولماذا أبعد وأنت شخصيا أيها الدكتور المحترم أزهرى بتمام ما فى « أزهرى » من معنى لأنك بلغت استحقاق العالمية ، فلماذا لا يقال عليك رجل دين الآن ، وأنت دكتور فى الأدب إلا أن تكون تناسيت هذه الصفة الأولى لك وما لها من آثار ، وهذا ما لا ينتظر من رجل علم وبحث أن يتناسى علمًا بعلم ومعهدًا بمعهد ، وأن انصرافنا عن معارفنا الإسلامية إلىالمعارف الأجنبية المحضة ، إنما هو بمثابة التخلى عن بلادنا وأوطاننا والانتساب إلى أخرى ليست لنا بأوطان ولا أهلها بأهل ، وحاشاك من ذلك ولو أن كل هؤلاء الأزهريين حافظوا على دينهم وأزهريتهم مع مهمتهم الجديدة ، ولم تشغلهم معارفهم الحديثة عن معارفهم الدينية كما تحدث الدكتور عن أولئك الرهبان والقسس الذين لم ينسهم فن الطيران فن اللاهوت ، ولا علم الهندسة علم الكتاب المقدس والقيام بشعائره ، ولا الجمع بين الرهبنة وهى عندهم مسيحية عميقة وبين البحث عن الآثار وهكذا . » .. « أما فى مصر فمن الأمر الذى يؤسف له كل الأسف أن الدين عند رجال تلك العلوم مطروح منبوذ ، كأنما الدين عدو العلم عندهم إلا قليلا حتى أن الأزهرى نفسه إذا شدا فى فرع من فروع العلم وليس منصبًا من مناصبه نسى تلك الأزهرية ، ونسى الإسلام وشرائعه والعمل به وتنكر له أو أنكره ، وهنا يخطر لى أن أشتق من نظرية الدكتور طه وأمنيته أن يكون الأزهرى إلى أزهريته طبيبا ومهندسًا وطيارًا .. إلخ كما يوجد فى رجال الدين

فى أوربا ، يخطر لى أن أشتق من هذه الأمنية أمنية مثلها ، وأسرد فيها مقالة الدكتور كلها ، وهذه الأمنية هى : لماذا لا يكون الطبيب رجلاً دينيًا ؟ والمهندس فى مصر رجلاً دينيًا ؟ والطيار كذلك .. الخ .. حتى نكون كرجال العلم فى أوربا يجمعون بين علم الدين والدنيا . (السياسة ١٢ ديسمبر ١٩٣٥) .

وقد طلب صاحب هذه الكلمات من طه حسين إذا كان لا يريد مجرد سلوة الصائم وتكميل اليوميات ، أن يتحدث بالتفصيل عن برنامج تعليم هؤلاء القسس الذين جمعوا بين علم اللاهوت وعلوم الحياة والدنيا ، ويقدم خطة لذلك يمكن أن تتبع فى مصر ، وقد رد طه حسين وأجاب وأفاض فى الإجابة .

وأما سخط الساخطين فقد قال قائلهم (سليمان الوكيل – من علماء الأزهر) فى جريدة السياسة أيضا تحت عنوان : شطط أى شطط ؟ .. ردًا على صاحب الرأى السابق .

« ما هى المعارف الحديثة ؟ هل هى العلوم الرياضية التى آد بها كاهلهم ، وأثقل بها حملهم وطغى سيلها على العلوم الدينية والعربية التى هى أساس أزهريتهم وأذهبتها بددًا وخنقت فيهم أنفاس العبقرية الأزهرية التى هى لهج لسان الدهر قديمًا وحديثًا ، لعمر الحق إن لسان حالهم يقول :

وحملت زفرات الضحى فأطلقتها ··· وما لى بزفرات العشى يدان

فكيف تطالبهم أن يحتفظوا بأزهريتهم ويظلوا مصبوغين بصبغتهم ، وأنت تسمع كل حين مر الشكوى والأنين من هذه العلوم التى تدعوها أنت (معارف جديدة) التى تلاطم جيشها واشتبك مع جيش العلوم الأزهرية الدينية ، ولا يمكن لعصبة العلوم حسم النزاع بينهما مهما فرضت من عقوبات على المعتدى ؟ أما علمت وكنت مدرسا بالقسم الثانوى بالأمس استصراخ الطلاب الراسبين فى نمرة ونصف نمرة يقولون (يا جابر ؟) فلم يجب لهم وضاع العام سدى من أجل أنصاف نمر .. وهل فى الأزهريين من تخرج أو يتخرج فيدرس هذه العلوم فى الأزهر حتى يستقل الأزهر ويسد ثلمته بيده ؟ ! لم نر هذا ولم نسمعه ولن نراه ولن نسمعه !

تطلب منهم أن يحتفظوا بأزهريتهم مع هذه المعارف الجديدة ، فأنت بهذا تكلفهم شططًا وأى شطط ؟

ألقاه فى اليم مكتوفًا وقال له :

إياك وإياك أن تبتل بالماء

وأعاد طه حسين التذكير « **سواء رضى الأزهريون أم لم يرضوا فإنى قد نشأت فى الأزهر واخذت عن أهله أصول المعرفة ، وتثقفت فيه الثقافة الأولى . فأنا مدين له بحياتى العقلية ، وأنا ملح فى أن أؤدى إليه هذا الدين ولو على كره من أهله لأنه لا أريد أن أؤديه كما يحبون هم بل كما يفرض ذلك علىَّ ضميرى ورأيى**

الذى أجتهد فيه ما استطعت وأنصح به ما وجدت إلى النصح سبيلا » .

ومن العجيب أن طه حسين هو نفسه الذى ينتقد بعثات الأزهر إلى أوربا ، ويعلن فى رأى خطير مثير موقفه حين يقول « **إنا نضن بالأزهر كل الضن أن يلقى بنفسه فى أحضان الثقافة اللاتينية أو السكسونية ، ونلح أشد الإلحاح فى أن يظل عربيًّا وعربيًّا خالصًا يأخذ من الثقافات الأوربية المختلفة بمقادير متناسبة متناسقة لا يطغى بعضها على بعض »** طالبًا من الأزهر أن يقتدى بالجامعة « **والأصل فى هذا التنويع ما قدمته من أن الجامعة حريصة كل الحرص على أن نأخذ بأطراف مختلفة من الثقافات المختلفة لأنها ترى أن هذا أحفظ للشخصية المصرية الخالصة ، وأجدر أن يفتح للمصريين أبوابًا متمايزة من العلم ، وأجدر بعد هذا كله أن يعصم العقل المصرى من أن يكون محتكرًا لشعب أوروبى ما ، » « ثم أعود فأتمنى على الأزهر فى أن يفكر فى أن فى مصر جامعة مصرية تدرس فروع العلم الحديث على نحو ما تدرسه الجامعات الأوربية .. فليوجه إليها بعوثه وليجعل السفر إلى أوربا مزية للنابهين والمتفوقين » ..**

ثم يقولون بعد ذلك ان طه حسين يدعو إلى التغريب !!

وكانت نظرة طه حسين لمن ينتدب للعمل فى البلاد العربية هى

نظرة من يرى أن جامعيا مصريا لن يرفع من شأن الجامعة فى قطر عربى بل سيرفع شأن مصر فى العالم العربى ، قال ذلك طه حسين حين انتدب بعض الأساتذة للعمل فى إحدى الجامعات العربية ، ووجد فى ذلك عزاء لما يحدث بالجامعة من اضطراب وإضراب ، حيث كان يجد « **بعض الحزن لما يصيب الجامعة من خطوب** » .

ولعل هذا بعض ما أخذ على طه حسين الذى لم يجد فيما يحدث إلا « بعض الحزن » فبعث إليه أحد القراء ساخطًا يقول له إنه « لا يجد فى أحاديثه نفعًا ولا فائدة » ، وراح يلومه ويعنفه متسائلا أسئلة استنكارية : ألم تعلموا أن الإنجليز قد أهانونا وظلمونا ؟

ألم تعلموا أننا الآن نحاربهم ويحاربوننا ؟

ألم تعلموا أن دور الملاهى تملأ عن آخرها من شبابنا كل يوم مرتين أو ثلاثة وأنها تعلمهم كيف يشبون ولا أخلاق لهم ولا دين ؟ .

وأن هذه هى إرادة الأعداء الظالمين الذين يريدون أن يصرفونا عن واجباتنا ليظلوا لنا غالبين وعلينا مسيطرين » .

ولم يجد طه حسين حرجًا فى أن ينشر لصاحب هذه الرسالة رسالته ، بل لعله وجدها فرصة كى يقول على لسان صاحب الرسالة ما يحس به ويحس به كل المصريين من سخط ينشره على صفحات جريدة واسعة الانتشار كجريدة « الجهاد » وهو حين يقدم الرسالة

وصاحبها يحتفى بهما أيما احتفاء ، معتبرًا هذا السخط علامة صحة قائلا لصاحبه : « **ويعجبنى منك هذا السخط فإن الاطمئنان آية الضعف وعلامة الخمود ، والله عز وجل يعصم مصر والمصريين من الضعف والخمود فإن سخطك هذا يصور فى نفوسنا سخط المصرى على حاضره وأمل المصرى فى مستقبله** » . ويحمد طه حسين ، الله ، على نقد الناقدين له وسخط الساخطين عليه ، لأنه يعتبره دليلاً على « **عناية القراء بما أكتب والسامعين بما أقول** » . فلم يكن طه حسين إذن بعيدًا عما يحدث فى مصر من أحداث — كما رأينا ، وحين تصل الأحداث إلى ذروتها بعودة الدستور ، يراها طه حسين نصرًا يذكره بانتصار بدر ، وقد وقع كلاهما فى رمضان ، وإن كان طه يرى فى الاضطرابات التى أودت بحياة العشرات من المصريين « خطيئة تورطوا فيها » ، وإن كان يرى لهم العذر لأنهم « اضطروا إليها اضطرارًا » . ويبتهج طه حسين مع كل المصريين بجدع أنف السياسة البريطانية ممثلة فى جدع أنف وزير خارجيتها المغرور ، الذى أثار المصريين بتصريحاته ضد عودة الدستور ، فعاد الدستور رغمًا عنه وليحتفل المصريون بثمرة انتصارهم ووحدتهم ، وهو « **ما انتهينا إليه فى نفس هذه الأيام التى بارك الله فيها على الإسلام والمسلمين فأنزل القرآن بأول عهد النبى بالرسالة ، أنزل فيها النصر بعد طول المحنة وشدة البلاء** » .

وهكذا يجعل طه حسين من عودة الدستور نصرًا كنصر المسلمين فى أولى غزواتهم الظافرة التى تحققت أيضًا فى شهر رمضان .

فهل ترى معى عزيزى القارئ بعد ذلك ان أحاديث رمضان ، التى تحدث بها طه حسين إلى قرائه تحت إلحاح صاحب جريدة الجهاد ، كانت أحاديث فى أمور تافهة ، كما يصر على تسميتها طه حسين نفسه ، وما يكاد يبلغ نهايتها حتى يستشعر القارئ من سطورها كأن طه حسين قد تحرر من رقها وقيدها الذى أسره زمنًا بلغ شهرًا أو أقل قليلاً من الشهر ، فلم يستطع منها فكاكًا إلا أربعة أيام حتى إذا بلغ منتهاها راح يطلب من قرائه « **شيئًا من الصفح** » متبرئًا من الثقل والتقصير مشهدا الله عليه أنه « **ما خلقت لهذه الأحاديث ولا خلقت لى ، ولكنى أمرت فأطعت ، ودعيت فأجبت والله لا يكلف الناس فوق ما يطيقون** » .

ولنترك رأى طه حسين فى نفسه وفى أحاديثه لنعلم بعد قراءة هذه الأحاديث أنه كان متواضعًا كأشد ما يكون التواضع ، ولعله اصطنع هذا التواضع الذى يقتضيه الشهر الكريم وهو يقدم مائدته العامرة بكل الأصناف من علمه وأدبه وثقافته الرفيعة التى لا تزال زادًا نافعًا كما كانت بالأمس وكما هى اليوم وكما ستكون غدًا ما بقيت لغة الضاد وبقى الناطقون بها إلى يوم الدين .

أحاديث رمضان

١

سؤال للمفتى :
ما حكم الكتابة فى السياسة فى شهر الصوم ؟[١]

وكذلك أرادت الصحف منذ أعوام طوال أن يكون لرمضان أحاديث وأرادتنا نحن الكتاب على أن نلقى إلى الناس هذه الأحاديث ، وأكبر الظن أن حب الصحف لقرائها وحرصها على أن ترضى ، واجتهادها فى أن يقدم إليهم مايحبون إذا أصبحوا وإذا أمسوا ، ورغبتها فى أن تهون عليهم الصعب وتيسر عليهم العسير وتعينهم على احتمال الحياة وما فيها من أثقال ، أكبر الظن أن هذا كله هو الذى حمل الصحف على أن تجعل لرمضان أحاديث ، وتطلب إلى الكتاب أن يلقوا هذه الأحاديث إلى القراء .

وفى رمضان مشقة وجهد ، فمن المعقول أن تفكر الصحف فى أن تخفف عن قرائها هذه المشقة وتعينهم على احتمال هذا الجهد ،

(١) هذا العنوان والعناوين التالية من وضع جامع المقالات ، فقد كانت تحمل أرقامًا فقط .

وفى رمضان عناية خاصة بالعبادة وحرص ممتاز بالسعى إلى رضا الله عز وجل ، وابتغاء مثوبته وإيثار المنزلة عنده ، فمن المعقول أن تفكر الصحف فى أن تعين قراءها على هذه العبادة وتمد لهم الأسباب التى يبتغون بها الوسيلة عند الله ، وتنشر لهم من الأحاديث ما يسهل عليهم ذلك وما يصرفهم وقتًا طويلاً أو قصيرًا عما ينبغى أن ينصرف عنه الصائم الذى لابد له من أن يجتنب الإثم ويعرض عن اللغو ويؤثر الخير ماوجد إلى إيثاره سبيلاً .

فالصحف حين تتكلف أحاديث رمضان لقرائها تعينهم على خير محقق وتصرفهم عن شر ممكن ، وهى من أجل هذا تقدم إليهم الحسنى وتستوجب عندهم الرضى عنها والتنافس فى قراءتها .

ولكن التحدث إلى الناس فى رمضان فيما أعتقد فن لا يحسنه الناس جميعًا ولا يكفى أن أكون كاتبا بل أن أكون كاتبا مجيدًا لأحسن هذا النوع من الحديث الذى يحتاج الناس إليه فى رمضان وأنا فيما أظن أقل الناس حظا من الأمل فى إحسان هذا الحديث ، فالصائم محتاج إلى أن يتحدث الناس إليه بما يعظ القلب ويزكى النفس ويبصر بالدين ، ورجال الدين والحمد لله كثيرون ، ومنهم الذين يعظون فيحسنون الوعظ ويزكون فيجيدون التزكية ويبصرون الناس فى دينهم فيحسنون التبصير ، وما ينبغى أن يفتى ومالك فى المدينة كما كان يقال ، وفى مدينة القاهرة أئمة فى الفقه الإسلامى يمثلون فقه المدينة وفقه الكوفة وفقه بغداد وفقه الفسطاط أيضًا ، فلهم التحدث إلى الناس فى

رمضان بما ينفعهم فى أمور دينهم ويظهرهم على أسراره القيمة وحكمه البالغة وليسوا بمقصرين فى ذلك والحمد لله ، فهم يكتبون فى الصحف ويقصون فى المساجد ويتنقلون بمواعظهم فى مجالس السمر التى يكثر الناس الاختلاف إليها فى رمضان . ومن الصائمين من يحتاج إلى أن يقطع وقته أو جزءًا من وقته طويلاً أو قصيرًا بشىء من الفكاهة البريئة الطاهرة التى لا إثم فيها ولا جناح على أصحابها ، يستعين بذلك على مشقة الصوم ويستعجل بذلك مغرب الشمس وإعلان المؤذن أن الله قد رفع عن الناس المشقة ورخص لهم فى أن يصيبوا ما يحتاجون إليه من طعام وشراب ، وكثير من الصائمين يسمرون الليل كله أو أكثره وينامون أكثر النهار ، وهم مع ذلك إذا استيقظوا ساعات من نهار قصير يستطيلون هذه الساعات على قصرها ، ويودون لو شغلوا عنها أنفسهم بقراءة تنسيهم الصوم ولا تورطهم فى حرج أو جناح ، ولست أنا مع الأسف أو مع السرور من أصحاب هذه الفكاهة ولا من القادرين عليها والماهرين فى تصريفها .

وإنما أنا رجل لا يكاد يعرض لموضوع من موضوعات الكتابة حتى يأخذه من أدنى نواحيه إلى الجد وأقربها إلى الشدة والجهد ، وإذا هو يشق على نفسه وعلى قرائه ، مغرم بالبحث والتحليل ، مشغوف بالاستقصاء والتعليل ، وأين هذا الصائم الذى يسمح له وقته وتعينه قوته على أن يقرأ فصولاً قوامها التحليل والتعليل ، والبحث والاستقصاء .

ولست متواضعًا ولا متكلفًا ولا ظالمًا لنفسى . فلعلى أحسن الفكاهة فى بعض الأشياء ، فى السياسة مثلا ، ولعلى إن حاولت هذه الفكاهة أن أبلغ من تسلية القراء بعض ما أريد وبعض مايريدون ، ولكن أين أنا من السياسة وأين السياسة منى ؟ بل هبنى أستطيع أن أعالج السياسة وأتصرف بالجد والهزل فى موضوعاتها المختلفة ، فإن نصحى للقراء ، وايثارى لهم بالعافية ، وحرصى على أن أجنبهم الشر ، وأباعد بينهم وبين المكروه ، كل ذلك كان خليقًا أن يحملنى على أن أتجنب الكتابة السياسية فى رمضان لو أن الكتابة السياسية مباحة لى لا يقوم القانون بينى وبينها ، فالسياسة التى يمكن أن يكتب فيها الكاتبون الآن بعيدة فيما يظهر كل البعد عن أن تلائم صوم الصائمين ، سواء أكان هؤلاء الصائمون كتابًا أم قراء . هى مثيرة للغيظ ، هائجة للحفائظ مغرية بالشر ، وما أجدر شهر الصوم أن يباعد بين الناس وبين ما يحفظ ويغيظ ويطلق الألسنة باللغو ويجرى الأقلام بالشر ويحمل الناس على مالا يلائم حلم الحليم ولا وقار الوقور .

وليت شعرى ماذا يرى شيوخنا أثابهم الله لو أن مستفتيًا سألهم عن الكتابة فى السياسة أثناء شهر الصوم كما تعود الناس أن يكتبوا فيها لافى مصر وحدها بل فى مصر وفى غيرها من البلاد الأوربية الراقية – أمباحة هى ! أم محظورة ! أم مكروهة ! مهما يكن من شىء فإنى أحمد الله على أن القانون يحظر على الكتابة فى السياسة حظرًا فيعفينى من أن أتورط وأورط الناس معى فى شر لا يلائم هذا الشهر الكريم ،

أنا إذن أقل الناس كفاية للنهوض بما طلبه إليّ صديقى صاحب الجهاد من التحدث إلى القراء فى رمضان ، لأنى لست من رجال الدين ولا من أصحاب الفكاهة ، ولأن ما أستطيع أن أكتبه خليق أن يشق على القراء ويزيدهم جهدًا إلى جهد ، وكدا إلى كد ، ولكن توفيقًا[1] مع هذا أبى إلا أن يكلفنى هذه الأحاديث ولم ترضه مني هذه المعاذير التى فصلتها للقراء تفصيلاً . بل لم ترضه منى معذرة أخرى قد تتصل بى أنا دون القراء ، وهى أنى أقل الناس قدرة على التزام الكتابة فى كل يوم ، وأقل الناس قدرة على اختيار الموضوع الذى أتحدث فيه إلى الناس كل يوم .

وإنما أنا رجل جامح النفس ، نافر الفن ، لا أكتب حين أراد على الكتابة ، بل لا أكتب حين أريد الكتابة ، وإنما أكتب حين تفرض الكتابة نفسها علىّ فرضًا .

فإن كتبت مستجيبًا لدعاء غيرى أو نازلا عند إرادة نفسى فهو الكلام الذى لا يغنى شيئًا كهذا الذى تقرؤه الآن .

ورغم هذا كله أبى « توفيق » إلا أن أكتب أحاديث رمضان وأستجبت له وأنا أول المظلومين لتحكم الصديق ، وأخشى ألا يكون القراء أقل انظلاما منى .

ولكنى مطمئن إلى أنى سأكتب لهم الجيد حينا والردىء أحيانا

---

(١) توفيق دياب .

دون أن أتعرض منهم لسخط أو غضب أو إنكار حين يقرءون مالا يحبون .

فالصوم لا يحب السخط ولا الغضب ، وإنما يحب الحلم والمغفرة والتجاوز .

وللقراء بعد ذلك عليّ ألا أخوض معهم أثناء هذا الشهر فى لغو ولا أتحدث إليهم إلا بما يلائم الصوم من حديث إلا يكن دينا خالصا فسيكون متصلا بالدين وإلا يكن فكاهة خالصة فسيكون متصلا بالفكاهة .

ولنبدأ هذا الحديث من غد ، وحسبنا اليوم هذه المقدمة الطويلة التى سيقرؤها القارئ فيود لو يستطيع أن يسخط على الإطالة والمطيلين وعلى الثرثرة والثرثارين ، ولكنه لا يستطيع أن يسخط لأن الصوم يعصمنى من سخطه ، فليعتصم هو بالصبر إذن ، فلعل حديث غد أن يعوضه من حديث اليوم خيرًا .

[٢]

قصيدة فى الصوم تفتح بابا جديدًا فى الأدب العربى

كان أبان بن عبد الحميد فتى من الموالى يعيش فى البصرة عيشة الشعراء الظرفاء وأصحاب الجد فى وقت الجد . كان يأخذ بحظ من الدعابة والمجون وكان يخوض فيما يخوض فيه الشعراء من فنون الشعر مدحًا وهجاء ورثاء وغزلاً أيضا . ولكنه إلى ذلك كله كان فتى ذكى القلب نافذ البصيرة قوى الذهن واسع العقل . فكان على اختلافه إلى مجالس الشعر والأدب واشتراكه فى حلقات النحو واللغة يختلف إلى مجالس الفقه والكلام ويسمع أحاديث الفلاسفة والنظار ويأخذ من علم أولئك وهؤلاء بأطراف لا بأس بها وكان بعد هذا كله كغيره من موالى هذا العصر وهو القرن الثانى للهجرة طموح النفس بعيد الهم لا يرضى بالحياة اليسيرة ولا بالمنزلة الهينة ، فلم يكد يتجاوز العشرين حتى ضاقت به البصرة كما ضاقت بأمثاله من الشعراء وحتى سمت نفسه إلى بغداد وما يقوم فيها من القصور ومن يعيش فيها من الوزراء والقادة وأعلام الناس ، فارتحل إلى بغداد وجد حتى اتصل

بالبرامكة فى حديث قد نعود إلى تفصيله وتفسيره غدًا أو بعد غد أو فى يوم من الأيام . ولكنه لم يكد يتصل بالبرامكة حتى علا قدره وارتفع أمره ، ثم ضاقت به قصور البرامكة فسما إلى قصر الرشيد واتصل بأمير المؤمنين فمدحه وأخذ جوائزه فى حديث قد نعود إلى تفصيله غدًا أو بعد غد أو فى يوم من الأيام . ولكنه بعد أن اتصل بالرشيد أصبح من أعلام الناس فى بغداد وفى البصرة أيضًا وفى العراق كله ، وهيأ لبنيه مكانة رفيعة فى الأدب والسياسة والمال .

ولم أتحدث إليك عن أبان بن عبد الحميد اليوم لأنه شاعر أديب ولا لأنه سياسى متلون فى السياسة كما سترى ذلك فى بعض الحديث ، ولا لأنه قد كسب من شعره وتلونه السياسى ثروة ضخمة ومكانًا رفيعًا ، وإنما تحدثت إليك عنه لأننا فى رمضان ولأنه تحدث عن الصوم . أو قل ألف فى الصوم أو قل نظم قصيدة فى الصوم ، أو قل إن أردت التحقيق أنه فتح للعلماء بابًا جديدًا لم يكونوا يعرفونه من قبل فعلمهم كيف يتخذ النظم وسيلة إلى حفظ العلم وتيسير انتشاره بين الناس ، فهو أول من علم الناس نظم المتون فى الأدب العربى . وليس من شك فى أن جماعة من الشعراء الذين عاصروه أو سبقوه قليلاً قد حاولوا بعض ما حاول فقد نظم صالح بن عبد القدوس كثيرًا من الأمثال والمواعظ ، ونظم أبو العتاهية كثيرًا من الحكم والعبر ، ولكن صالحا وأبا العتاهية وغيرهما لم يحاولوا نظم المتون كما يعرفها وإنما حاولوا إنشاء قصائد من الشعر فى فن من الفنون الشعرية المألوفة

التى طرقها الشعراء منذ العصور الأولى ، فهم نظموا الحكم والأمثال كما نظمها زهير فيما يقال ، فأما أبان بن عبد الحميد فقد قصد إلى أشياء بعينها فألف فيها كتبًا منظومة على نحو ما قصد ابن مالك – فيما بعد – إلى النحو فنظم فيه الألفية . وقد بقى لنا من نظم أبان هذا نموذجان . أحدهما قطعة من نظمه لكليلة ودمنة وقد يقال إنه نظمه للبرامكة فى أربعة عشر ألف بيت فأجازوه بخمسة عشر ألف دينار نزل عن ثلثها للفقراء واحتفظ بالثلثين لنفسه وأسرته ، وقد نعود فى يوم من الأيام لما بين يدينا من نظم كليلة ودمنة فنقارن بينه وبين نثر ابن المقفع ، وهو على كل حال قصيدة من الرجز .

والنموذج الثانى قصيدة نظمها فى أحكام الصوم والزكاة وجعل لها عنوانًا منظومًا أيضا وهو :

قصيدة الصيام والزكاة   نقل أبان عن فم الرواة

وهو كذلك قد جعل عنوان كليلة ودمنة نظمًا من الرجز فقال هذا :

هذا كتاب أدب ومحنة   وهو الذى يدعى كليلة ودمنة

وهو يقسم قصيدته فى الصوم والزكاة إلى كتابين فيما يظهر كما تعود الفقهاء أن يقسموا مؤلفاتهم فى ذلك الوقت وفيما بعده . فيقول فى أول باب الصوم :

هذا كتاب الصوم وهو جامع   لكل ما قامت به الشرائع

وأكبر الظن أنه قد قال مثل ذلك فى أول كتاب الزكاة الذى يصل إلينا . وهو يجعل لكتاب الصوم مقدمة يبين فيها مصادر الأحكام التى نظمها فيرد هذه المصادر إلى القرآن الكريم ، ثم إلى السنة المطهرة ، ثم إلى ماروى من اختلاف الناس حسب ما انتهى إليهم من أثر أو ظهر لهم من قياس ، ولا بأس برواية هذه المقدمة فهو يقول بعد البيت الذى رويناه آنفا :

من ذلك المُنزل فى القرآن   فضلاً على من كان ذا بيان
ومنـه ما جـاء عن النبى   من عهده المتبع المرضى
صلى الإلـه وعليه سلما   كما هدى الله به وعلما
وبعضه على اختلاف الناس   من أثـر ماض ومن قيـاس

على أن صاحبنا برغم هذا كله يؤثر مذهب أبى حنيفة ، ولكنه لا يذكر أبا حنيفة نفسه فيما بقى لنا من كتاب الصوم وإنما يذكر صاحبه وتلميذه أبا يوسف قاضى الرشيد . وأكبر الظن أنه لم يؤثر ذكرى أبى يوسف عفوًا وإنما تعود التنويه بقاضى القضاة والتمس الوسيلة عنده والتقرب إليه فقال :

والجامع الذى إليه صاروا   رأى أبى يوسف مما اختاروا
قال أبو يوسف أما المفترض   فرمضـان صومـه إذا عَـرض

وأنا أقف عند هذا البيت الأخير فلم أكد أصل إليه حتى ثقل علىَّ

وسمج فى نفسى ، لا لأنه أسمج من الأبيات التى سبقته فتكلف النظم ظاهر فى هذه الأبيات كلها كما هو ظاهر فى كل ما بقى لنا من هذه القصيدة ، وكما سيظهر فى كل ما نظم العلماء بعد صاحبنا من المتون ، ولكن لأن الشطر الثانى من هذا البيت لا يكاد ينشد حتى يضطرنا إلى ذكر الآية الكريمة التى فرض الله بها على الناس صوم رمضان .فإذا تلونا الآية ، ثم أنشدنا البيت ظهر لنا بونٌ لا يُدرك مداه بين أسمج الكلام وأجمله وأعذبه وأرقاه وبين كلام آخر أقل ما يوصف به أنه سمج سخيف ، فأين قول الله عز وجل : ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ من قول أبى يوسف نثرا أو قول أبان بن عبد الحميد نظما :

فرمضان صومه إذا عرض .

وأنت مضطر إلى أن تجد هذا الشعور . إذا مضيت فى الأبيات التى تأتى بعد هذا البيت فسترى الناظم يعدد لك مافرض الله على الناس من صوم فى كفارات الإيمان والقتل والظهار وفى الحج حين يتورط الحاج فى بعض المحظورات وفى التمتع من العمرة إلى الحج . فكل بيت من هذه الأبيات أو كل حكم من هذه الأحكام يكرهك على أن تذكر الآية الكريمة التى فرض فيها هذا الحكم.فإذا تلوت الآية ثم أنشدت البيت أحسست بالبون الذى لايدرك مداه بين أسمج الكلام وأجمله وأرقاه ، وبين كلام آخر لايعدو أن يكون سمجًا سخيفًا .

ويكفى أن أضرب لك مثلاً آخر بعد المثل الذى ضربته آنفا ، فانظر إلى قول إبان فى كفارة الظهار :

والصوم فى الظهار إن لم يقدرِ مظـاهر يومـا عـلى محـــررِ
شهـران فى العـــدة كامـلانِ متصـــلان لا مفـــرقـــــانِ

ثم انظر إلى قوله عز وجل فى كفارة الظهار ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ﴾ ﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾ ثم اسأل نفسك بعد ذلك كيف يستبيح شاعر أو أديب لنفسه أن يعبر عن كفارة الظهار بهذا النظم السمج السخيف بعد هذا الكلام الرائع البديع .

والغريب أن أصول العيب التى نجدها فى المتون المنظومة المتأخرة والتى تضحكنا الآن حين نتندر بها موجودة كلها أو أكثرها فيما بقى لنا من منظومة إبان هذه فانظر إلى هذا البيت :

وخطأ القتـل وحلـق المُحـرم لرأســـه فيـه الصيـام فافهـم

فقوله « فافهم » كلمة لا يكاد يخلو منها متن منظوم فى علم من العلوم وأكبر الظن بل المحقق أن صاحبنا هو أول من لجأ إليها ليتم قافيته .

ومع هذا كله فليس من شك فى أن هذا النحو من نظم أبان بن عبد الحميد للحكمة والأخلاق فى كليلة ودمنة ، وللفقه فى كتاب الصوم والزكاة ، قد كانا فتحًا جديدًا فى الأدب العربى حين وفق إليه أبان لأنه راصن اللغة ومرنها ويسرها وأتاح للشباب تحصيل العلوم فى سرعة ويسر ، ثم أتاح للمتأخرين نظم المتون التى شقينا وسعدنا بحفظها وفهمها أيام الشباب والتى يشقى بحفظها وفهمها بعض الشباب فى الأزهر والجامعة ، فالجامعيون أيضا يحفظون المتون ، ولعلهم يقبلون على حفظ المتون حين يعرض عنه الأزهريون .

وبعد فقد أحب أن يقرأ شيوخ الأزهر هذه الأبيات التى بقيت من قصيدة الصوم ورواها الصولى فى كتاب « الأوراق » وأن يقارنوا بينها وبين ما ألفوا من المتون المنظومة المألوفة ، ولكن لا أحب أن تتخذ هذه الأبيات عنوانا لشعر أبان ومظهرًا لفنه الأدبى فهو شاعر مجيد يصل أحيانا إلى الروعة ، والله يحرم الظلم على الناس فى كل وقت ولعل تجريمه فى رمضان أشد منه فى كل وقت آخر فلابد من إنصاف أبان ومن إظهارك على شيء من شعره الرائع الجميل . فلأحاول ذلك فى حديث غد إن شاء الله .

٣

ذكاء شاعر

تحدث العتابى قال : كنا بباب الفضل بن يحيى البرمكى أربعة آلاف ما بين شاعر وزائر ، وفينا فتى يحدثنا ونجتمع إليه ، فبينا هو ذات يوم قاعد إذ أقبل إليه غلام له كأجمل الغلمان ! فقال له : يا مولاى أخرجتنى من بين أبوى ، وزعمت أن لك صلة بالملوك ، فقد صرنا إلى أسوأ ما يكون من الحال ، وقال : إن أردت أن تأذن لى فأنصرف إلى أبوى فعلت . فاغرورقت عينا الفتى ، ثم قال ائتنى بدواة وقرطاس ، فأتاه بهما فقعد حجزة فكتب رقعة ثم عاد إلى مجلسه ثم قال للغلام انصرف إلى وقت رجوعى إليك ، فبينا نحن كذلك إذ جاء رجل يستأذن على الفضل فقام إليه الفتى فقال : توصل رقعتى هذه إلى الأمير ؟ قال : وما فى رقعتك ! قال : أمدح نفسى وأحث الأمير على قبولى ، قال : هذه حاجة لك دون الأمير فإن رأيت أن تعفينى فعلت . قال : قد فعلت ، فعاد إلى مجلسه فخرج الحاجب فقام إليه فقال له مثل مقالته الأولى ، فاستظرفه الحاجب وقال : إن رجلا يتصل بمثل الفضل يمدح نفسه لا يمدح الفضل عجيب ، فأخذ منه الرقعة ثم دخل فلوحها

للفضل فقرأ منها سطرين وهو مستلق على فراشه ثم استوى قاعدًا وتناول الرقعة فقرأها فلما فرغ من الرقعة قال للحاجب . أين صاحب الرقعة ؟ قال : أعز الله الأمير والله لا أعرفه لكثرة من بالباب ، فقال الفضل : أنا أنبذه لك الساعة يا غلام ! اصعد للقصر فناد أين مادح نفسه ؟ فقام الغلام فصاح . فقام الفتى من بيننا بغير رداء ولا حذاء . فلما مثل بين يدى الفضل قال له : أنت القائل ما فيها ! قال نعم ! قال : أنشدنى ، فأنشأ الفتى يقول :

أنا من بغيـة الأمـير وكـنز — من كنوز الأمـير ذو أربـــاح
كاتب حاسب، خطيب، أديبٌ — ناصـح زائـد عـلى النصــاح
شاعـر مفلـق أخـف من الريـ — ـشـة مما يكون تحت الجناح
ثم أروى عن ابـن هَرْمَـةَ للنّا — س بشعـر محـبر الإيضـــاح
ثم أروى عن ابن سـيرين للعـ — ـلم بقـول منور الإفصـــاح
لى فى النحـو فطنـةٌ ونفـاذٌ — لى فيـــه قـلادة بوشــــاح
إن رمى بى الأمير– أصلحه الله — ـه رماحًا صددت حد الرماح
ما أنَا واهِـنٌ ولا مُسْتَكِـــينٌ — لسوى أمرسيدى ذى السماح
لست بالضخم يا أمير ولا القـ — ـم ولا بالمجحـدر الدحـــداح
لحية سبطـة ووجـه جميـــل — واتقـــاد كشعلـــة المصبـــاح
وظريف الحديث من كل لون — وبصـــير بحاليـــات مـــلاح
كم وكم قد خبأت عندى حديثا — هـو عنــد الملوك كالتفـــاح

فبمثــلى تحلــو الملوك وتلهو   وتناجى فى المشكل الفداح
أيمن الناس طائرا يوم صيد   فى غدو خرجت أم فى رواح
أبصر الناس بالجـوارح والخيـ   ـل وبالخـود والحسان الملاح
كل هذا جمعت والحمد للـ   ـه على أننى ظـريف المــزاح
لست بالناسك المشـمر ثوبيـ   ـه ولا الماجن الخـليع الوقاح
إن دعــانى الأمير عـاين منى   شمـريا كالبــلبــل الصــياح

فقال له الفضل :

كاتب حاسب خطيب أديب   ناصح زائد على النصاح ؟

قال : نعم أصلح الله الأمير . فقال الفضل : يا غلام ، الكتب التى وردت من فارس فأتى بها . فقال للفتى : خذها فاقرأها وأجب عنها ، فجلس بين يدى الفضل يكتب ، فقال له الحاجب : اعتزل يكن أذهن لك . فقال : ها هنا الرأى أجمع بحيث الرغبة والرهبة ، فلما فرغ من الكتب عرضها على الفضل فكأنما شق عن قلبه . فقال الفضل : يا غلام بدرة ، بدرة ، بدرة . فقال الفتى : للغلام أعز الله الأمير دنانير أو دراهم ! قال : دنانير يا غلام . فلما وضعت البدرة بين يديه قال الفضل : احملها بارك الله لك فيها . قال الفتى : والله يا أيها الأمير ما أنا بحمال وما للحمل خلقت فإن رأى الأمير أن يأمر بعض غلمانه بحملها على أن الغلام لى . فأشار الفضل إلى بعض الغلمان ، فأشار الفتى إليه مكانك . فقال : إن رأى الأمير أيده الله أن يجعل الخيار

الیَّ فی الغلمان كما فعل بين البدرتين فعل . فقال : اختر . فاختار أجملهم غلامًا . فقال : احمل فلما صارت البدرة على منكب الغلام بكى الفتى فاستفظع الفضل ذلك وقال : ويلك أستقلالا ! قال : لا والله أيدك الله ولقد أكثرت ولكن أسفا أن الأرض توارى مثلك . قال الفضل : هذا أجود من الأول : يا غلام زده كسوة وحملانا . قال العتابى : فلقد كنت أرى ركاب الفتى تحت ركاب الفضل (كتاب الأوراق للصولى من صفحة ٤ – ٦) .

وكان من اليسير أن ألخص هذه القصة تلخيصًا لولا أنى بخلت بهذه القصة الجميلة فى لفظها وأسلوبها وعذوبة الروح فيها أن تظل مدخرة فى كتاب الأوراق وما يشبهه من كتب الأدب لا يظهر عليها ولا يستمتع بها إلا الذين يعالجون مثل هذه الكتب ، ولست أدرى أصدق العتابى فى كل ما تحدث به أم تزيد فى ذلك بعض الشيء ورتب قصته ترتيبا . ولكن الصورة التى يعرضها علينا العتابى فى هذه القصة خليقة بالعناية كما أن الصورة التى يعرضها علينا أبان لنفسه فى هذه القصيدة خليقة بالعناية أيضًا . فهذا فتى رقيق الحال قد أقبل من البصرة ومعه غلام له يريد أن يكسب فى بغداد مجدًا ومالاً وقد آثر أن يتصل بالفضل بن يحيى ولكن الوصول إلى الفضل عسير فهؤلاء آلاف من الناس يلزمون بابه منهم الشاعر والكاتب والأديب والزائر وصاحب الحاجة . ولابد للفتى من أن يحتال حتى يلج هذا الباب الذى طال تردده عليه وقيامه عنده . وهو ينتهى إلى حيلة جديرة

بالانجاح فهو لا يمدح الفضل وإنما يمدح نفسه ، وهو لا يطلب عطاء وإنما يعرض خدمة ، وقد انجحت حيلته فرغبت الحاجب فى عرض قصيدته على الوزير ثم رغبت الوزير فى قراءة هذه القصيدة ثم حملته على لقاء الفتى وامتحانه . وقد امتحنه لونين من الامتحان فاستنشده القصيدة أولاً ثم امتحنه فى الكتاب والحساب ثانيًا ، فوفق الفتى إلى إرضاء الوزير فى هذين اللونين من الامتحان ..

وأنت ترى فى القصيدة أن الفتى قد وصف نفسه بالمهارة فى الكتاب والحساب والخطابة والبلاغة والشعر والعلم والنحو واللغة ، ثم وصف نفسه بالجمال وخفة الروح وعذوبة الحديث وظرف المزاح ويمن الطائر فى الصيد ، والعلم بأداة الصيد من الجوارح والخيل ثم وصف نفسه فى أثناء هذا كله بقوة العارضة وشدة الشكيمة وصعوبة المراس ، فهو لم يكن يريد من الوزير أقل من أن يتخذه لنفسه كاتبًا ومشيرًا ونديمًا . لم يكن يريد أقل من أن يستخلصه الوزير لنفسه ..

ثم انظر إليه وقد فتن الوزير بجراءته عليه ، فلم يكد يأمر له بالمال حتى سأله أيكون هذا المال دراهم أو دنانير . ولم يكد يأمره بحمل دنانيره حتى أظهر من الأنفة والعزة ماهو أدنى إلى الإغراق فى السؤال منه إلى الأنفة والعزة . فلم يكد الوزير يأمر له بالغلام الذى طلبه ليحمل له المال حتى غلا فى الجرأة وهاج أريحية الفضل إلى الجود والعطاء وأبى إلا أن يختار الغلام بين غلمان الفضل كما اختار من قبل بين الدراهم والدنانير ثم لم يكد يتم له كل ما أراد حتى أتى هذه الحركة

التى لفتت إليه الفضل كله فبكى فلما استفظع الفضل بكاءه وظن أنه يستقل ما أعطاه قال الفتى هذه الجملة التى تصوره أجمل تصوير وأصدقه وتدل على أنه قد خلق ليحيا فى القصور ، إنه لا يبكى استقلالا للعطاء وانما يبكى أسفا لأن الأرض توارى مثل الفضل ، وقد انتهى بهذه الجملة إلى كل ما أراد فزاد الفضل فى عطائه ثم استخلصة لنفسه ، فأصبح رفيقه إن أقام ورفيقه إن سار ..

وقد حدثتك أمس أن اتصاله بالبرامكة لم يكفه ولم يرض ما كان يملأُ نفسه من طموح فطمع فى لقاء الرشيد وظفر بما أراد ولكنه لم ينزل فى سبيل الرشيد عن ماء وجهه فحسب وإنما نزل عن شىء كان يراه دينا ..

ولعلى أحدثك عنه غدًا أو بعد غد ..

٤

كلنا يفعل ما لا يستحل

لم يرض الشعراء المعاصرون لأبان عن سيرته العامة ولا عن سيرته الخاصة فاتصل الهجاء بينه وبين بعضهم فى البصرة واتصل بينه وبين بعضهم فى بغداد . واتهمه أولئك وهؤلاء فى دينه وخُلقه ولكن الحديث فى الهجاء وآثامه لا يليق بهذا الشهر ، فلنقف عند قصيدة واحدة هجاه بها أبو نواس ليس فيها إثم ولا فسوق وإنما أنكر أبو نواس هذه الصورة التى عرضها إبان من نفسه على الفضل بن يحيى البرمكى وحسده فى أكبر الظن على ما نال من عطاء الوزير والاتصال به فنقض عليه قصيدته التى رويناها أمس بهذه القصيدة التى نرويها اليوم ، وقد أشرت إلى القصيدتين وإلى الهجاء الذى اتصل بين الشاعرين فى غير هذا الموضع مما كتبت منذ زمن بعيد ، قال أبو نواس :

أُنت أولى بقلة الحظ منى يا مسمى بالبلبل الصياح
قد رأوا منه حين غنى لديهم نم أخرس الصوت غير ذى إفصاح
ثُم بالريش شبَّه النفس بالخفة مما يكون تحت الجناح

فإذا الشُم من شماريخ رضوى عنـــده خفـة نـــوى المِسبَاح
لم يكن فيك من صفاتك شيء غِير خلق مجـدر دحـداح
لحية شـطة ووجـه قبيـــح وانثنـاء عن النهى والصـلاح
فيك ما يحمل الملوك على الخر ق ويُزرى بالسيد الجحجاح
فيك تيه وفيك عجب شديد وطمـاح يفـوق كل طمـاح
بارد الظرف مظلم الكذب ذو خرق معبد الحديث نزر المزاح
فالذى قلت فيك باق صحـيح والذى قلت ذاهب فى الريـاح

وكما أن أبا نواس كان ملهما فقد ضاع أكثر ما قال أبان فيه من الهجاء وبقى شعر أبى نواس فى أبان ، والرواة يتحدثون كما رأيت أمس بجمال أبان وحسن منظره ومانشك نحن فى ذكائه ونفاد بصيرته فما زعم أبو نواس من جهله وقبحه مردود عليه ولكن ما تحدث به أبو نواس من تيه أبان وإسرافه فى الإعجاب بنفسه حقيقة واقعة فيما يظهر وبينما كان أبو نواس يحسد صاحبنا على اتصاله بالبرامكة كان شاعر آخر يحسده حسدًا مرًّا وهو مروان ابن أبى حفصة . فقد شكا مروان ابن أبى حفصة مرة الفقر وكان بخيلاً فلما ذكرت له الجوائز التى كان يأخذها من الرشيد ذكر الجائزة التى أخذها أبان من البرامكة حين نظم لهم كليلة ودمنة وذكر أن هذه الجائزة وحدها تعدل جوائزه التى أخذها من الرشيد كلها ، ولم يكن حسد أبان لمروان بأقل من حسد مروان له . فالرواة يحدثوننا بأنه كان مغيظا لمكانة مروان من

خلفاء بنى العباس . ولما كان يقال من أنهم كانوا يجيزونه على البيت الواحد من قصائده بألف درهم . وكان أبان طموحًا كما حدثتك أمس وكما رأيت فى شعر أبى نواس الذى رويته آنفا فعاتب البرامكة لأنهم لم يوصلوه إلى الرشيد . فقال له الفضل : إن ذهبت مذهب مروان أوصلت شعرك إلى الرشيد وبلغتك ما تريد ..

قال : والله ما أستحل ذلك ، قال الفضل : كلنا يفعل مالا يستحل ؛ ولابد من وقفة عند هذا الحوار فإن له قيمته وخطره فى تصوير الساسة والشعراء فى ذلك العصر بل فى عصور كثيرة أخرى فقد كان أبان كغيره من كثرة الموالى بيعة للعلويين يؤثرهم ويراهم أحق بالخلافة من بنى العباس ، فالذى طلبه إليه الفضل ثمنا للوصول إلى الرشيد إنما هو تغيير مذهبه الدينى والسياسى وقد أظهر أبان ترددا أول الأمر فقال له الفضل : كلنا يفعل ما لا يستحل . أى كلنا يرى فى السياسة والدين رأيا ويظهر غير ما يرى . وكان أبان سهل الاقتناع فيما يظهر أو كان طموحه أقوى من رأيه فى السياسة والدين استمع للفضل وتأسى به وبغيره من الناس . ثم أصبح فغير رأيه فى الدين والسياسة وأعلن إيثاره لآل العباس على آل على فى هذه القصيدة التى ركب بها الفضل إلى الرشيد والتى وقعت من الرشيد أحسن موقع ، وإن كانت إلى النظم المتكلف أقرب منها إلى الشعر الجميل وإن كانت إلى حوار الفقهاء وأصحاب الكلام أقرب منها إلى كلام الشعراء والأدباء . وإن كانت قافية الساكنة ثقيلة ممضة . وإن كانت أبياتها الكثيرة على

ما تكلف فيها من جهد واحتمل فيها من عناء لا تعدل بيتًا واحدًا لخصمه مروان ابن أبى حفصة وهو :

أنّى يكون وليس ذاك بكائنٍ ... لبنى البنات وراثـة الأعمام

وأنا أروى لك هذه القصيدة نقلا عن كتاب الأوراق للصولى ففيها تلخيص حسن لمذهب المتكلمين من شيعة بنى العباس ..

نشدت بحق الله من كان مسلمًا ... أعم بما قد قلته العجم والعرب
أعَمُّ نبىِّ الله أقرب زلفة ... لديهِ أم ابن العم فى رتبة النسب؟
وأيهما أولى به وبعهده ؟ ... ومن ذا له حق التراث بما وجب؟
فإن كان عباس أحق بتلكم ... وكان «علىّ» بعد ذاك على سبب
فأبناء عباس هم يرثونه ... كما العم لابن العم فى الإرث قد حجب
وفى حسن إذ قلتم فيه حجة ... فقد باعها لا ينكر الناس أو وهب
فإن كان ذا حق فعمدا أضاعه ... وإن كان ذا دعوى فكفوا عن الشغب
وهبه كما قلتم ، وليس كذا كم ... أما ذادكم عنها المطالب واغتصب
فأهملتموها لم تروا حليـة لهـا ... إلى ان أراد الله إتمـام ما أحب

ألست ترى أنك أمام فقيه أو صاحب كلام يناضل عن رأيه بالحجة والبرهان فيزعم أولاً أن العباس أقرب إلى النبى صلى الله عليه وسلم فهو أحق بإرثه من على لأن العم يحجب ابن العم فى الميراث . ويزعم ثانيًا أن الخلافة آلت إلى العلويين فأضاعوا حقهم فيها حين نزل الحسن عنها لمعاوية بيعًا أو هبة عام الجماعة ويزعم ثالثًا أن العلويين قد ردهم

بنو أمية عن الخلافة فأهملوها ولم يستردوها حتى نهض لها العباسيون فاستخلصوها من المغتصبين ..

على أن صاحبنا بعد هذه الحظوة لم يتحرج من المضى فى ذم العلويين ومدح العباسيين ، وتستطيع أن نقرأ له فى ذلك قصيدة جيميه طويلة رواها الصولى فى كتاب الأوراق وأعرضت أنا عن روايتها إشفاقا من الإطالة ؛ وقد ظفر أبان بجوائز الرشيد واتصل به اتصالاً لم يقف عند السياسة ولكنه انتهى إلى الحياة الخاصة فقد أصبح الشاعر من ندماء الخليفة . ويروى لنا الصولى طائفة حسنة من الشعر قالها أبان فى رثاء هيلانة جارية الرشيد ، وفى تعزية الرشيد عنها ولكنى أدع هذا النحو من الشعر إلى قصيدة من أروع ما قال أبان بل من أروع ما قال العرب فى رثاء القضاة كما يزعم الصولى وقد قالها أبان حين مات ثور قاضى البصرة . وهى لا تمثل القاضى وحده وإنما تمثل ما كان يضمر له أبان من الحب وما وجد أبان لموته من الحزن والأسى فلتكن هذه القصيدة موضوع حديثنا غدا إن شاء الله ..

٥

صورة مكروهة من كبار الموظفين

قال صاحبى دعنا من أبان بن عبد الحميد ونظمه فى الصوم والزكاة واتصاله بالوزراء والولاة وتحوله عن العلويين إلى العباسيين ومدحه للخلفاء ورثائه للقضاة ، واسمع لهذا الحديث القصير ، ثم انقله عنى إلى قرائك فإنى لا أحسن أن أتحدث إليهم بنفسى ولم أتعود أن أكتب إلى الصحف . وثق بأنك تحسن إلىّ أن أستمعت لى لأنك تسرى عنى كثيرًا من الهم وتذود عنى كثيرًا من الحزن ، وتشفى نفسى من ألم لا يخففه إلا أن أتحدث به إلى الناس . ثم ثق بأنك تحسن إلى الناس أن نقلت إليهم هذا الحديث ، فهم فى حاجة إلى أن يسمعوه ويفكروا فيه ويجعلوه بعض أسمارهم فى ليالى رمضان ويمتحنوا أنفسهم بالتفكير فيه أثناء الصوم ، فلعلهم أن يجدوا فى ذلك ما يصلح الخلق المعوج ويقوم السيرة الملتوية ويرد شر بعضهم عن بعض ، وأى شهر أجدر بهذا كله من شهر الصوم .

قال صاحبى : وثق بعد هذا كله بأنك تحسن إلى فريق من المصريين

ان نقلت إلى قرائك هذا الحديث القصير ، فقد فسدت على هؤلاء النفر أمورهم كلها حتى أصبحت فى حاجة إلى أن تؤخذ بالإصلاح وإن كان عنيفًا ثقيلاً فكيف وأنا لا أريد إلا أن أصلحهم بالقول وأدعوهم إلى أن يفكروا فى أنفسهم ويضعوها حيث أراد الله أن تكون لا حيث يريد الجهل والغفلة والغرور أن تكون . وهَمّ صاحبى أن يمضى فى حديثه فقلت : هون عليك وعلىّ وارفق بنفسك وبى واجتنب الإغراق فى إهداء النصح وإرجاء الوعظ وبسط المقدمات واجتهد فى أن تكون موجزًا ولو كنت مكانك لألغيت هذه المقدمة إلغاء ، وهجمت على الحديث الذى أريد أن أقصه .

قال صاحبى : ما أرى أنك تخطئ تخطىء فى التقدير لولا أنى مغيظ محنق منذ يومين ولولا أن شيئًا وقر فى نفسى واستقر فى قلبى وهو أنى لن أبرأ من هذا الغيظ ولن أخلص من هذا الحنق إلا إن لقيتك وقصصت حديثى عليك وظفرت منك بأنك ستسوقه عنى إلى القراء .

ولقد سعيت إليك أول أمس فلم ألقك ثم سعيت إليك أمس فعرفت أنك قد انتقلت من دار إلى دار ثم مازلت أبحث عن دارك الجديدة حتى ظفرت بها اليوم فلا تستكثر علىّ هذه المقدمة التى تستهلك من وقتك دقائق بعد أن احتملت هذا الغيظ الذى استهلك من وقتى أكثر من يومين ، وأى غيظ أشد تحريقًا للقلب وتعذيبًا للنفس من غيظ

الصائم الذى يريد أن يكون فوق الموجدة والحفيظة ، ويحرص على أن يبرأ من كل ما لا يلائم الصيام من العواطف والميول والأهواء ، قلت : هات حديثك فإذا فرغت منه فنفس من قلبك ورفه على نفسك ، وخض فى حديث الأخلاق والموعظة ما وجدت من نفسك القدرة على أن تخوض فيه ، قال : حديثى قصير يا سيدى ولكنه ثقيل يضنى النفس ويقطع القلب لوعة .. قلت : أما أنه ثقيل مضن فقد عرفته من كل هذه المقدمة وأما أنه قصير فنبأ أسمعه وأريد أن أصدقه .. فهات حديثك . قال : ألم تذهب مساء الخميس إلى الأوبرا لتشهد فيها تمثيل هذه القصة التى يسمونها « إنقاذ ما يمكن إنقاذه » قلت : بلى لقد ذهبت وشهدت القصة فلم تعجبنى وإنما أعجبنى الممثلون وأرضتنى مهارتهم فى التمثيل ، قال : وما يعنينى من القصة وموضوعها ومن الممثلين وتمثيلهم ، قلت : فإنا لم نذهب إلى الأوبرا إلا لنشهد القصة ونعجب بالممثلين . قال : نعم ولكن حديثى القصير قد أفسد علىَّ كل شىء ، فقضيت ساعات التمثيل فى الأوبرا ولم أستمتع بتمثيل ، ولم ألتفت إلى ممثلين ولم أعرف أكانت القصة جيدة أم رديئة وإنما أنفقت وقتى كله أدافع نفسى وأمانعها واروضها الشدة والعنف حتى لا تأتى أمرًا عظيمًا . قلت وقد ضقت بهذه الإطالة ذرعا : هات حديثك يرحمك الله . قال وإن الغيظ ليقطع صوته تقطيعًا : مقصورة ياسيدى من مقصورات الأوبرا شغلتها أسرة من الأسر منذ ابتدأت الساعة العاشرة مساء إلى أن كادت تنتهى الساعة الأولى بعد نصف

الليل . قلت : وما ذاك وأى غرابة فيه . قال : لا غرابة فى هذا وإنما الغرابة فى رجل وقف على باب هذه الأسرة ولم يبرح مكانه منذ ابتدأت الساعة العاشرة مساء إلى أن كادت تنتهى الساعة الأولى بعد نصف الليل . ولا تسل عن ذاك ولا عن وجه الغرابة فيه ، فقد كان فى المقصورة موظف كبير من الموظفين الكبار ومعه أسرته وكان على باب المقصورة ساعيه الذى يخدمه أثناء العمل فى الديوان ، ولم يمكنى صاحبى من أن أسأله أو أحاوره وإنما مضى فى حديثه مغيظًا محنقًا . فقال : كان هذا الساعى صائما فى أكبر الظن ، أو المفترض فيه أنه كان صائما ، وهو على كل حال فى شهر رمضان وقد أدى عمله الرسمى فى الديوان كما أداه الموظف الكبير وله أسرة كما أن للموظف الكبير أسرة ومن حق هذه الأسرة أن تنعم بلقائه وتسعد بعشرته إذا انتهى من عمله الرسمى . ليست اسرة الموظف الكبير أحق بربها من أسرة هذا الموظف الصغير ، ولهذا الموظف الصغير مثل ما لرئيسه من الحق فى أن يستريح بعد العمل ويفطر بعد الصوم ويسمر بعد الإفطار ويشهد التمثيل إن احتاج إلى شهود التمثيل . أفلا يغيظك أن تهدر هذه الحقوق كلها لا لشىء إلا لأن الموظف الكبير أراد أن يشهد التمثيل فقضى على هذا البائس أن يضيع على نفسه وعلى أسرته وعلى أصدقائه ليلة من ليالى رمضان . وهممت أن أتكلم فمضى صاحبى فى الحديث ملحًا مغرقًا فى الإلحاح وهو يقول : وحدثنى عن هؤلاء السعاة الذين تقيمهم الحكومة على أبواب الموظفين الكبار أأحرار هم

أم عبيد ، أمتصلون هم بمكتب الرئيس أم بشخص الرئيس ؟ ! أخدام هم لدولة أم لعمال الدولة ؟ وكلما هممت أن أجيب على سؤال من هذه الأسئلة مضى صاحبى فى حديثه لا يلوى على شىء ، فكان يسألنى : كيف يستبيح الرؤساء لأنفسهم أن يطغوا على المرءوسين إلى هذا الحد يخالفون فى طغيانهم هذا قوانين الدولة وقوانين العرف وقوانين الخلق وقوانين الدين ، ويتجاوزون ما ينبغى للناس فى شهر الصوم ألا يتجاوزوه ، فالله يريد للناس أن يحسنوا فى شهر الصوم ولا يسيئوا ، وأن يعدلوا ولا يظلموا وأن يرقوا ولا يغلظوا وان يلينوا ولا يقسوا ، والله لم يأخذ الناس بالصوم إلا ليعلمهم كيف تراض النفوس على الشدة وكيف تذوق الألم فتأبى أن تذيقه غيرها ، وكيف نجد الحرمان فتذود الحرمان عن المحرومين ، أليس من الحق على الحكومة أن تأخذ الموظفين الكبار باحترام القانون وباحترام زملائهم من صغار الموظفين . فقل ماشئت يا سيدى فإنى مؤمن ويجب أن تؤمن الدولة بأن هذا الساعى زميل لرئيسه الموظف الكبير لا عبد له ، ولا خادم .
وقل ماشئت يا سيدى فلن يستقر النظام الديمقراطى فى مصر حتى يستقر فى نفوس المصريين ، وحتى يعلم كبار الموظفين أنهم لم يشتروا السعاة ، ولم يستأجروهم ، وأن من حق السعاة أن يستريحوا وينعموا بحياتهم المتواضعة كما أن من حق الكبار أن يستريحوا وينعموا بحياتهم المترفة ، واقسم ياسيدى لو كنت وزيرًا ورأيت هذا الموظف الكبير يُظهر فى مقصورته ما كان يظهر من ألوان الكبرياء ورأيت ساعيه

قائما على بابه هذه الساعات الطوال لكان أول عمل أبدأ به حين أصبح من غد أن أنتصف من هذا الموظف الكبير الطاغية لهذا الموظف الصغير المظلوم ، قلت لصاحبى وأنا أداعبه : هون عليك فإنى أخشى أن تكون مغرقا وأن تكلف نفسك مالا تطيق فقد تصبح وزيرًا فى يوم من الأيام وثق بأنك لن تستذل السعاة وحدهم فى ذلك اليوم بل تستذل معهم نفرًا من الموظفين الكبار والصغار ، على أنى سأنقل حديثك إلى القراء فى غير شرح ولا تفسير ، وأنا برىء إلى هذا الموظف الكبير الذى رأيته فى الأوبرا وصورته هذا التصوير من تبعة حديثك هذا . فقد قيل إن ناقل الكفر ليس بكافر . ولك علىَّ إن أصبحت موظفًا كبيرًا ألا أستذل ساعيا فى ليل أو نهار فى رمضان أو فى غير رمضان . فكما أنى أكره أن أذل للرؤساء مهما يكونوا فإنى أكره أن يذل لى المرءوسون مهما يكونوا ، والأمر لا يعدو أن يكون طبيعة ومزاجا .

٦

عبرة للوطنية المصرية
من موقف لبرنارد شو

وأبى صديق آخر إلا أن يشغلنى عن حديث الأدب بحديث لست أدرى إلى أى فن أنسبه ، ولعله يمس الأخلاق ، والأخلاق الاجتماعية خاصة ، والأخلاق الوطنية بنوع أخص أكثر مما يمس شيئًا آخر ، وقد زعم لى هذا الصديق أن الذى يبيح لنفسه أن ينفق وقته ووقت القراء فى حديث ذلك الموظف الكبير الذى أضاع على ساعيه ليلة من ليالى رمضان وأقامه على باب مقصورته واقفا لا يريم لا يشهد التمثيل ولا ينعم بحريته . الذى يبيح لنفسه أن يشتغل ويشغل قراءه بحديث هذا الموظف وساعيه يجب أن يبيح لنفسه أن يشتغل ويشغل قراءه بما نقلته الصحف منذ أيام من حديث ذلك الكاتب الإنجليزى العظيم . قال صديقى : وما أظنك تزعم أن ذلك الموظف الكبير أعظم شأنًا وأجل خطرًا من برناردشو وسيرته مع إيطاليا ، وما أظنك تزعم أن أمر هذا الموظف الكبير مع زميله الصغير يمس الأخلاق أكثر مما يمسها أمر برنارد شو مع إيطاليا فى ذلك النبأ الظريف الذى نقلته

الصحف منذ أيام ، وكنت أجهل هذه القصة التى يشير إليها صديقى ويلح فى الإشارة إليها ويأبى إلا أن يشغلنى بها وإلا أن أشغل بها القراء ، فلما سألت صديقى عن هذه القصة فتحت على نفسى بابًا من اللوم العنيف لم أغلقه إلا بعد جهد ولأى . ذلك أن صديقى أخذ يلومنى ويؤنبنى لأن نبأً مثل هذا النبأ العظيم قد أفلت منى حين قرأت الصحف يوم الجمعة أو يوم السبت ، وما ينبغى لمثلى من الذين يصطنعون الأدب ويعنون بالأدباء أن نفوتهم أنباء عظماء الكتاب والشعراء . وقد حاولت أن أكف صاحبى عن هذا اللوم معتذرًا له بألوان المعاذير متكلفًا لذلك ألوان الخيال محتجًا بأن الأحداث الخطيرة التى تحدث فى مصر والأحداث الخطيرة التى تحدث فى كثير من أطراف الأرض والأحداث الصغيرة الثقيلة التى تحدث فى حياة الأفراد فتكلفهم أثقالا ربما بغضت إليهم الحياة وزهدتهم فيها ، كل هذه الأحداث الكبيرة والصغيرة القريبة والبعيدة خليقة أن تصرفنى أو تصرف غيرى عن قصة الكاتب الإنجليزى العظيم مع الديكتاتور الإيطالى العظيم ولكنى لم أبلغ من صديقى شيئا ولم أخلص من لومه المتصل إلى القصة التى أراد أن يشغلنى بها ويشغل بها القراء عن رثاء أبان بن عبد الحميد لقاضى البصرة ثوار بن عبد الله إلا بعد أن اعترفت بالذنب والتزمت الخطيئة وأكدت له العهد على أنى سأعنى حين أقرأ الصحف بالدقيق والجليل من أخبار الأدباء فى مصر وفى غير مصر . هنالك استراحت نفسه واطمأن قلبه ورضى أن يحدثنى بهذه القصة

الخطيرة ، فنفوس الإيطاليين ضيقة بالإنجليز نافرة منهم ساخطة عليهم أشد السخط وهم من أجل هذا يجدون فى مقاطعة الإنجليز ويسلكون إلى هذه المقاطعة طرقا مختلفة وقد أخذوا فى هذه الأيام يقاطعون الأدب الإنجليزى فيما يقاطعون فحظروا على ملاعبهم تمثيل الآثار الإنجليزية ولم يستثنوا من أدباء التمثيل الإنجليز إلا رجلين اثنين . أحدهما شكسبير لأنه شاعر عالمى ولأن تراثه الأدبى الخالد قد ارتفع عن أن يكون ملكًا لأمة من الأمم فأصبح ملكا للأمم جميعا ، وأما الثانى فبرنارد شو لأنه يخاصم الحكومة الانجليزية أو الحكومات الإنجليزية . فليس هو عدوًا لإيطاليا ولا مسيئا إليها .

قال صديقى : وانتهى الخبر إلى برنارد شو فضاق به أشد الضيق وسخط عليه أشد السخط ثم أسرع إلى إنكاره جهرة ورفض أن تؤثره إيطاليا بالمودة والحب والتمثيل فى بلادها وملاعبها دون غيره من الكتاب الإنجليز . وأعلن أنه سعيد حين يقرن إلى شكسبير ولكنه شقى حين يميز من مواطنيه الآخرين ، وأعلن أن مخاصمته الحكومة الإنجليزية ليست مخاصمة للشعب الإنجليزى ، وهى لا تنتهى به على كل حال إلى أن يرضى بهذه الزلفى الغريبة عند الإيطاليين ، ثم أصدر أمره إلى وكيله بأن رفض الإذن بتمثيل أى قصة من قصصه مادام الأدب الإنجليزى التمثيلى مقاطعًا فى إيطاليا ، قال صاحبى : والذين يعرفون برناردشو ومزاجه الحاد وطبيعته الشاذة ونفوره من

المألوف ومخاصمته المتصلة للحكومات الإنجليزية وللشعب الإنجليزى فى كثير من الأحيان يقدرون موقفه هذا أعظم القدر ويفكرون فيه أعمق التفكير . فإلى أى شيء يمكن أن يرد هذا الموقف الذى وقفه برنارد شو من حكومة تؤثره بالبر دون مواطنيه فتقدم إليه أعظم ما يمكن أن يقدم إلى كاتب من مظاهر الإكبار والإجلال ، ويهدى إليه أعظم ما يمكن أن يهدى إلى فنان مما يتملق الغرور وحب النفس ، أتراه يرد إلى العاطفة الوطنية الإنجليزية أن تراه يرد إلى هذه الشخصية العظيمة التى امتاز بها هذا الكاتب العظيم ، فقد تكون العاطفة الوطنية الإنجليزية من القوة والسلطان وشدة السيطرة على النفوس بحيث تقرر ثورة الثائرين من الإنجليز وتقمع جموحهم وتنتصر على شذوذهم وتردهم إلى التضامن الاجتماعى مع مواطنيهم مهما يكن بينهم وبين مواطنيهم من الفروق .

وقد تكون شخصية برنارد شو من القوة والعظمة وشدة البأس والمِرَّة بحيث تسمو على نفسها وتنتصر على جماحها وتأبى إلا أن ترد نفسها إنجليزية وإن كانت عالمية وإلا أن تكره نفسها على التضامن مع الإنجليز وإن كانت ثائرة بالإنجليز وساخطة على ما يألفون من نظام وما يحبون من حياة : وقد يرد موقف برنارد شو إلى هذين الأمرين جميعا . فالعاطفة الوطنية الإنجليزية قوية فى نفسها وقد صادفت شخصية قوية وفى كلتيهما عناصر خالدة غير قابلة للفناء فلما التقتا

لم تفن إحداهما الأخرى وإنما ائتلفتا وكان بينهما انسجام بديع أنشأ هذا الموقف الرائع الذى جعل من برنارد شو الساخط على الإنجليز وحكومة الإنجليز وطنيا إنجليزيا عظيمًا فى وقت من أوقات الشدة .

والإنجليز ليسوا مظلومين ولا مقهورين ولا مضيقا عليهم ولعلهم هم الذين يظلمون ، ولعلهم هم الذين يحاولون القهر ، ولعلهم هم الذين يريدون أن يضيقوا على الناس . فبرنارد شو لم ينحز إلى قومه مشفقا عليهم ولا راثيا لهم ، وإنما انحاز إليهم متضامنا معهم مفاخرًا بهم .

أفليس هذا كله خليقا أن نقف عنده ونفكر فيه ولاسيما فى هذه الأوقات التى نصطدم فيها اصطداما ظاهرًا بقوة الإنجليز وبأس الإنجليز .

أفليس هذا كله خليقا أن ننتفع به فى حياتنا الخاصة وفى أخلاقنا الاجتماعية والوطنية .

أفليس فى هذا الموقف الذى وقفه برنارد شو عبرة للوطنية المصرية الناشئة أمام الوطنية الإنجليزية القديمة .

أفليس هذا كله خليقا أن يحمل على الاعتبار والتفكير قومًا منا يعظم إيمانهم بأنفسهم وإكبارهم لشخصياتهم فإذا هم يطغون ويتعالون ويرفعون أنفسهم أن ينزلوا إلى إرادة الشعب ويصغرون الشعب أن

ينزل عظماؤه عندما يريد ويأبون إلا أن يأمروا فيطاعوا ويقولوا فيسمع لهم ، فإن لم يبلغوا من ذلك ما يريدون أنكروا ما كانوا يعرفون وعرفوا ما كانوا ينكرون .

بلى إن فى هذا الموقف الذى وقفه برنارد شو لعظة لمن يريد أن يتعظ وعبرة لمن يريد أن يعتبر ، وأن الخصومة بين المصريين والإنجليز لخليقة أن تحمل المصريين على أن يفكروا ويطلبوا التفكير فى هذه الخصال التى تكون قوة الإنجليز !

٧

حلمان

لله قلوب الشباب فإنا نقصر أشد التقصير حين نصفها بالطهارة والإخلاص ، ولله طباع الشباب فاما نقصر أشد القصور حين نصفها بالسلامة والصفاء . وإن الألفاظ التى نقدر عليها لأن اللغة قد أباحتها لنا حين نريد أن نصف هذه القلوب وهذه الطباع وما يصدر عنها من العواطف والميول البعيدة كل البعد عن أن نصف ما نريد أن نصفها به ، وبعيدة كل البعد عن أن تصور ما تمتلئ به قلوبنا من حب لهؤلاء الشباب ورضى عنهم وثقة بهم ، وأمل فيهم .

نعم إن قلوب الشباب لأكرم جوهرا ، وإن طباع الشباب لأصفى مزاجا مما نستطيع أن نصورها ، وإن ما يملأ نفوس الأساتذة والمربين من الحب لطلابهم وتلاميذهم لأرقى من أن تحيط به هذه الألفاظ التى نصطفيها حين نريد أن نظهر الطلاب والتلاميذ على ما نضمر لهم من حب ، وما نكن لهم من حنان ، وما نحتفظ به لهم من وفاء ، وأنت تقرأ هذه الأسطر فتسأل : وفيم حمد الشباب والثناء عليهم ، وإلى أى غرض نريد أن تنتهى من هذا الإطراء الذى لم يمهد له ، ولم تتخذ

إليه وسيلة ولا سببا . وكم كنت أحب أن أنشر لك هذا الكتاب الذى انتهى إلىَّ اليوم من مدينة نائية فى أوروبا فسرنى يومى كله وساءنى يومى كله وملأ قلبى غبطة لا تشبهها غبطة وحرق قلبى بلوعة لا تشبهها لوعة .

كتاب وصل إلىَّ من طالب صديق ينبئنى فيه بأنه كان يتهيأ للامتحان ، مستعدا له أحسن الاستعداد مبتهجا بالإقبال عليه أشد الابتهاج ، وإنه لفى ذلك وإذا علة تلم به ، فتؤذيه ، وتضنيه ، وتحمله إلى المستشفى . وإذا الجراحون يعالجونه فيحسنون علاجه ، وإذا هو يكتب إلى بعد أن أخذ الشفاء يسعى إليه ويبعث فيه النشاط والقدرة على الكتابة والتفكير ، وهو يختلس الكتابة إلى اختلاسا ، لأن الأطباء والممرضين يأبون عليه الحركة والجهد ، فينتهز ساعة يأمن فيها الرقيب ويكتب إلىَّ لينبئنى بماذا ؟ الله يشهد ما أملك لما أجد من الحب والبر والحنان وصفا ولا تصويرا ، والله يشهد لو استطعت أن أطير إلى حيث بمرض هذا الطالب الصديق لما ترددت فى ذلك لحظة ولكن أحب شىء إلى وآثر شىء عندى أن أخف إليه ، وأنفق معه ما أستطيع من الوقت محبا له ، برًا به ، مانحا إياه كل ما يستطيع قلب الأب الرقيق أن يمنح ابنه البار من الود والحنان .

نعم لقد انتهز ساعة أمن فيها الرقيب فلم يكتب إلى أبويه لأنه أشفق عليهما أن يروعهما النبأ ، ومن حق الأبوين أن يرتاعا حين يعلمان أن ابنهما مريض أو أن ابنهما كان مريضا فى بلد نازح غريب ، وإنما

كتب إلى أستاذه لأنه لم يجد بدا من أن يكتب إلى إنسان . فلما فكر فيمن يكتب إليه خطر له أستاذه فأفضى إليه بما فى نفسه .

وأى شىء فى نفسه ؟ إنه الإخلاص كأكرم ما يكون الإخلاص ، والثقة كأغلى ما تكون الثقة ، والحب كأنفس ما يكون الحب . أنبأه بعلته وأنبأه بتقدمه نحو الشفاء ، وأنبأه بما لقى من عناية الجراحين والممرضين ، وأنبأه بما لقى من عطف أساتذته الأوربيين وأبنائهم وزوجاتهم ، وأنبأه بما لقى من عطف مدير البعثة المصرية فى المدينة التى يمرض فيها وبره ، كأنه يقول لأستاذه إنى لا أستطيع أن أشكر هذه العناية وحدى ، فأعنى على أن أشكرها وليكونن أستاذه عند حسن ظنه به ولتبلغنه أستاذه ما أراد ، وليشاركنه أستاذه فى شكر هؤلاء القوم الكرام الذين عرفوا حق الغربة وحق الجوار . ولكنه لم ينبئ أستاذه بهذا وحده . وإنما أنبأه شىء آخر كان له فى نفس أستاذه أبلغ الأثر . رأى أستاذه فى الحلم مرتين . رآه مرة يشجعه ويواسيه فى المستشفى ، ورآه مرة وقد بلغت به الحمى أقصاها يشيع جنازته فى القاهرة . أطال الله بقاءه وحفظ على أهله ووطنه حياته الخصبة الغالية .

ثم ردت إليه العافية فهو يكتب لأستاذه ليشكر له هذين الحلمين بنفس هذه القلوب الطاهرة ، وبنفس هذه النفوس الكريمة ، وبنفس هذه الثقة العذبة الساذجة ، إنها لتفرض على الأساتذة لطلابهم حبا لا سبيل إلى أن يحد ولا أن يوصف ، إنها لتفرض للطلاب على أساتذتهم

نصحا لا يشوبه أثره ، ولا يفسده أى غرض من أغراض الحياة ، إن هذه القلوب البريئة المخلصة التى يضطرب فى صدور الشباب خليقة أن لا ترى فى قلوب الشيوخ من الآباء والأساتذة إلا مرآة تصور ما فيها من الإخلاص ، ونرد عليها ما تبذل من حنان .

لك التحية أيها الطالب الصديق . لك التحية أيها الابن البار ، لك التحية أيها الأخ العزيز ، لقد كانت كتبك تصل إلىَّ أيام المحنة فتملأ قلبى رضى وأمنا وغبطة وثقة بالشباب المصريين . وهذا كتابك ينتهى لى اليوم فلا أدرى كيف أصور ملء قلبى من السرور بحبك والحزن لمرضك .

لك التحية خالصة ملؤها حب أرجو أن يكون كفؤا لحبك ، ووفاء أرجو أن يكون كفؤا لوفائك ، وما أرانى بعد ذلك إلا مقصرا فى ذاتك ، عاجزا عن أن أوفيك حقك علىَّ من الوفاء والاخلاص .

أما بعد فإنى أرجو أن يعذرنى القراء إذا لم أتحدث إليهم اليوم إلا بأمر هذا الكتاب فهو قد ملأ علىَّ يومى كله ، وأظنه سيملأ علىَّ أياما أخرى ، ولكنى سأحتفظ به لنفسى ، وما لى لا أفعل ومثل هذا الكتاب إذا وصل إلى مثلى خليق أن يحمل إليه أحسن ما ينتظر من العزاء عما مضى ، وأن تفتح له أجمل ما ينتظر أن يفتح من أبواب الأمل فى مستقبل الحياة الجامعية المصرية .

٨

القلق سبيل العمل .. والشك سبيل اليقين

وانقضى الأسبوع الأول من شهر رمضان ولم يتح لى فى هذا العام أن أشهد مجالس الناس ولا أن أسمع أحاديثهم ، وأشاركهم فى أسمارهم . وليس من شك فى أنى أضعت من هذا كله شيئا كثيرا عظيم الخطر ، فقد يظهر أن لأسمار الناس فى ليالى رمضان وأحاديثهم قيمة لم نظفر بها منذ أعوام طوال ، ومصدر ذلك هذه الأحداث التى حدثت فى مصر وهذه الأحداث التى حدثت فى أقطار الأرض فاضطربت لها النفوس أشد الاضطراب وأخذ الناس يتناقلون أخبار ما يحدث هنا وهناك من الحوادث يزيدون فيها وينقصون منها ويعلقون عليها ويتناولونها بالشرح والتفسير ، وإذا كثرت الأحداث من قريب ومن بعيد ، واتصلت الأنباء واختلطت الإشاعات كانت الأسمار فى نفسها فنا قيما لذيذا لمن يشهد هذه الأسمار مفكرا فيها ممتحنا لها مبتليا للصلات بينها وبين نفوس الناس الذين يسمرون ، فهو يشهد فى حقيقة الأمر نفوس الناس عاملة غير كسلة ، ونشيطة غير فاترة ، ومتحركة غير ساكنة . وفى نشاط النفوس وحركتها وحياتها الجادة

جمال يقدره الأدباء ويستلهمونه خواطر كثيرة هى التى تبعث فى فنهم الروح والحياة ، وفى نشاط النفوس وحركتها وحياتها الحادة هذه الأيام مناقضة ظاهرة للمألوف من أمرها إذا أقبل الصوم فشق على الناس بياض النهار ، ثم إذا أقبل الافطار فشق عليهم بالتخمة أول الليل . فهم ينفقون نهارهم هادئين مطمئنين ، بل هم ينفقون نهارهم وهم أدنى إلى الخمود والجمود منهم إلى أى شيء آخر ، فإذا وجبت الشمس نشطوا ولكن للطعام والشراب لا للحديث والتفكير ، فإذا رفعوا أيديهم عن الطعام عاد إليهم خمود ثقيل بعد ذلك الخمود الخفيف الذى كان يدركهم أثناء الصوم ، خمود مصدره الكلّة والامتلاء ، ومظهره الإقبال على التدخين والقهوة والانصراف عن الكلام إلا أن يكون متقطعا مفرقا ، والإقبال على الصلاة إذا دعا المؤذن إليها فى تثاقل وكسل ظاهرين ، ولابد من أن ينقضى شطر غير قصير من الليل ومن أن يحرق كثير من السجائر ويحتسى كثير من كؤوس القهوة وتؤدى العشاء وما يتبعها من التراويح حتى يسترد العقل اتزانه ويسترد المزاج اعتداله ويسترد الجسم نصيبا من نشاطه .

أما فى هذا العام فقد وجب الصوم فى فصل معتدل لا يثقل فيه على النفوس ولا على الأجسام ، لا يثقل فيه الجوع لشدة البرد ، ولا يثقل فيه الظمأ لشدة القيظ ولا تضطر النفوس فيه إلى خمود أو همود ، ووجب الصوم فى فصل حافل بالحوادث الجسام ، دافع إلى التفكير والتقدير وإلى الجدال والحوار ، باعث فى الحياة العامة

والخاصة ، وفى النشاط الاجتماعى على اختلاف مصادره ومظاهره قوة لا تجعل للفتور سبيلا إليه ، فالناس أيقاظ فى النهار والناس أيقاظ فى الليل ، والناس يقرءون الصحف إذا أصبحوا ويتساءلون عما كان ، والناس يقرءون الصحف إذا أمسوا ويتساءلون عما سيكون ، ويكاد هذا النشاط العظيم يخرج صومهم عن طوره ، ويصرفهم عما ينبغى للصوم من الأناة والهدوء ومن العبادة والتقوى إلى الاشتغال بأنفسهم ، ومنافعهم ، وآمالهم . فمنهم السائل ، ومنهم المستقصى ، ومنهم الطامع ، ومنهم المشفق ، وكلهم مشغول بهذا أو كالمشغول به عما كان قد ألفه فى أمثال هذا الشهر الكريم من إخلاد إلى الراحة وانصراف إلى الطاعة وتجنب للغو فى الحديث إن تحدث وفى التفكير إن فكر . فإذا انقضى النهار وأقبل الليل خف بعضهم إلى بعض وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، ماذا قال فلان ؟ وماذا فعل فلان ؟ وما عسى أن يقول فلان ليرد على ما قال فلان ؟ وماذا عسى أن يفعل فلان ليرد على ما فعل فلان ؟ وأكبر الظن أن الناس لا يطيلون الجلوس إلى المائدة وأن الطعام والشراب لا يثقلان على معدهم ولا يغشيان عقولهم بهذه الأغشية التى لم تكن لتزول إلا بالسيجارة فى أثرها السيجارة والقهوة فى أثرها القهوة ، وإنما يعجلهم ما هم فيه من تفكير ومن تقدير ومن تنازع وتدافع عما ألفوا أن يطمئنوا إليه من طعام وشراب ، ومن كسل وخمود . فإذا صليت العشاء وبدأت الزيارات فالناس لا يعرفون فى أكبر الظن حدا للسؤال والجواب ، ولا غاية للحوار والجدال .

وهذا كله فى نفسه طريف ممتع للأديب إن أراد أن يلاحظه

ويستخرج منه العبر والعظات ، ويغذى منه فنه الذى يحتاج دائما إلى الغذاء .

ولكن وراء هذا النشاط العنيف الطريف شيئا آخر ليس أقل منه طرافه ، ولا أيسر منه خطرا . فهذا الاضطراب العام الذى يدفع الناس إلى التفكير والتروية وإلى النشاط والحركة وإلى الحوار والجدال ، يثير مسائل أمام العقل : منها ما يمس السياسة ومنها ما يمس الاجتماع ، ومنها ما يمس التعليم ومنها ما يمس هذا الفرع أو ذاك من فروع الحياة ، وإذا الناس يعرضون لكثير من المشكلات التى كانوا يعرضون عنها من قبل ويشغلهم الاطمئنان إلى حياتهم العادية عن الخوض فيها ، وإذا هم يستأنفون عرض هذه المشكلات ويلتمسون لها الحلول الجديدة بعد أن ينقدوا أو يعيدوا النظر فيما كان قد عرض لها من حلول قديمة . وإذا هم يستكشفون مشكلات جديدة لم يكونوا يشعرون بها من قبل أو لم يكن يشعر بها منهم إلا الأقلون عددا .

وإذا هم يصورون خطر هذه المشكلات الجديدة ويستقصون نتائجها ويجتهدون فى الطب لها والعناية بها ، وإذا هم فلاسفة أكثر مما يظنون ، وإذا هم يرتقون بأنفسهم وأحاديثهم عما ألفوا الوقوف عنده من أعراض الحياة اليومية ، وإذا هم إنسانيون إذا صح هذا التعبير لا يفكرون في أنفسهم خاصة وإنما يفكرون فى أمتهم ولعلهم لا يفكرون فى أمتهم وحدها وإنما يفكرون فى الناس جميعا .

وكان المجلس الذى شهدته أمس واستمعت لأحاديثه واشتركت

فى أسماره مجلسا جامعيا بالطبع ، وكان المألوف من أمر الجامعيين فى مثل هذا المجلس وفى مثل هذه الأسمار أن يتجاذبوا أطرافا من العلم ومن الأدب ويخوضوا فى ألوان من حديث الجامعة مختلفة ، ولكنهم أمس لم يكونوا يتحدثون فى علم ولا أدب ، ولم يكادوا يتحدثون فى الجامعة . وأسرع فأقول إنهم لم يكونوا يتحدثون فى صروف الحياة المصرية وخطوبها ، وإنما ارتقوا بأنفسهم وبأحاديثهم عن هذه الموضوعات كلها وأنفقوا ساعاتهم يتحدثون فى شؤون الطلاب لا فى إضرابهم عن الدرس ولا فى هذه الحياة التى يحيونها فى هذه الأيام ، وإنما فى حياتهم الاجتماعية التى تمس عقولهم وأجسامهم وما ينبغى أن يكون بينهم من صلات .

هذا يتحدث عن غذاء الطلاب ويلاحظ أنه بالقياس إلى أكثرهم بعيد كل البعد عن أن يلائم أجسامهم الناشئة وعقولهم التى تطالب بالجهد العسير . ويسأل ما بال الجامعين والأساتذة منهم خاصة لا يفكرون فى هذا ، ولا يتعاونون على إنشاء مطاعم للطلبة تقدم لهم الغذاء الجيد النافع الصحى الذى لا يكلفهم من النفقة فوق ما يطيقون .

وهذا يتحدث فى أسنان الطلاب حين يتمون الدرس الثانوى ويقبلون على التعليم العالى ما بالها لا تحدد ، وما بال الطلاب يهملون إهمالا ، فإذا منهم من يتقدم إلى الجامعة وهو لم يتم بعد نموه الجسمى ولم يستكمل قوته العقلية ، وما بال الحكومة لا تعين

سنا لا يقبل الطالب للشهادة الثانوية إلا إذا استوفاها كما عينت سنا للزواج .

وهذا يتحدث فى الألعاب الرياضية وحظ الطلاب المصريين منها ، وتقصيرهم فى العناية بها ، وما يلام عليه الجامعيون من أنهم لا يشجعون الطلبة عليها ولا يدفعونهم إليها دفعا . ولا يكاد ينتهى سمر القوم إلا وهم يجمعون على الأسف والأسى لأنهم لا يجدون فى الحياة الجامعية ما يمكن الرضى به ، أو الاطمئنان إليه . وأعود أنا راضيا كل الرضى ، مطمئنا كل الاطمئنان لأنى واثق بأن القلق سبيل العمل ، كما أن الشك سبيل اليقين ، ولأنى مؤمن بأن السخط على حالنا الحاضرة هو أول العمل لإصلاح حالنا المستقبلة . ولأنى موقن بأن ما يظهر من الحزن واليأس فى أحاديث الناس وأسمارهم سيفتح أبواب السرور والأمل والنشاط لهذا الجيل الناشئ من شباب المصريين .

لتكن إذن العاقبة العاجلة لهذه الأحداث الأخيرة فى مصر ما تكون فليس عندى شك فى أنها ستترك فى حياتنا العقلية والاجتماعية أثارا خليقة بالإكبار ، وكذلك لن ينتهى شهر الصوم فى هذا العام حتى يكون قد ترك فى نفوس الناس طائفة من الخواطر والآراء لم تتركها أمثاله فى الأعوام القليلة الماضية .

فلينشط الناس فى النهار ، وليسمر الناس فى الليل ، وليستعرضوا المشكلات القديمة وليستكشفوا المشكلات الجديدة ، فإن هذا كله هو الحياة وغير هذا مما كنا فيه قبل أسابيع هو الموت أو ما يشبه الموت .

٩

درس لشيوخنا من راهب فرنسى

أما أمس فقد رجعت إلى العزلة التى أصطنعتها أثناء رمضان هذا العام فلم أشهد مجالس الناس ولم أسمع أحاديثهم ، ولم أشترك فى أسمارهم ، وحسنا فعلت . فقد كنت فى حاجة حقًّا إلى أن أخلو إلى نفسى لأنى كنت فى حاجة إلى التفكير ، وقد كان من الخير أن لا ألقى المواطنين . لم أكن حسن الاستعداد للأخذ فيما يأخذ الناس فيه من حديث فى هذه الأيام أو هذه الليالى وإنما كنت إن أردت أن أصور حالى بالضبط مبتهجًا كل الابتهاج محزونا كل الحزن . ولك أن تسخر من هذا الكلام ولك أن تسخر من الصورة التى يؤديها هذا الكلام ، ولك أن تسخر من هذا الرجل الذى يجمع المتناقضات فيسر ويحزن ، ويبتهج ويكتئب . ولكن سخرك لن يغير شيئًا فالصورة التى أعرضها عليك صحيحة صادقة ، فقد كنت أمس مبتهجا مكتئبا وكنت شديد الحاجة إلى العزلة وكان الخير أن لا ألقى المواطنين .

وإذا كان هذا الحديث غريبا فإن مصدره ليس أقل غرابة منه ، فقد كنت مبتهجًا مكتئبًا ، لأنى سمعت فى الساعة الثامنة محاضرة ممتعة

قيمة أرضتني كل الرضى وأحزنتني كل الحزن ، وكان الذى ألقى هذه المحاضرة راهبًا فرنسيًا من اليسوعيين هو الأب بوادبار ، وكان موضوع المحاضرة اصطناع الطيران فى استكشاف الآثار والبحث عنها ، وأظن أن فى شخصية المحاضر وفى موضوع محاضرته ما يدعو إلى العجب ويثير الاستغراب ، فالأصل فى الرهبان أنهم أصحاب عبادة ودين ، فان يجاوزوا العبادة والدين فهم أصحاب علم وأدب وفن يعكفون على العلم والأدب والفن فى مكاتبهم ويقفون عليها جهودهم وأعمارهم . وهم على كل حال مقيمون بين الناس على هذه الأرض لايبرحونها ، وهم بحكم رهبانيتهم لا يخالطون الناس إلا بمقدار . فأما أن يصعد الرهبان فى الجو وأن يطيروا فى السماء ، فهذا هو الغريب الذى لم يألفه الناس ولا سيما إذا اتخذوا التصعيد فى الجو والطيران فى السماء صناعة وفنا . ولا سيما إذا لم يكفهم انهم معنيون بهذا الفن مشغوفون به ، فأخذوا يرغبون فيه ويحثون عليه ويدعون إليه بالخطب والمحاضرات . والأصل فى الآثار أنها مدفونة فى جوف الأرض أو ماثلة على ظهرها ، وأن الذين يلتمسونها إنما يهبطون إليها يحتفرون لذلك الحفائر ، ويتعمقون فى هذا الاحتفار ، فأما أن يصعدوا فى الجو ويطيروا فى السماء ليستكشفوا ما خبأت الارض فى جوفها من آثار القدماء ، فهذا هو الشىء الغريب الذى لم يألفه الناس . ولست أخفى عليك إنى لم أذهب إلى المحاضرة التى سمعتها أمس كما ذهب إليها غيرى من هذا الجمهور الضخم الذى استمع لها فقد كنت على

شيء من العلم بأمر المحاضر وفنه لأني سمعته منذ أعوام طوال يحاضرنا
في بيت المقدس عن اصطناع الطيران لاستكشاف الآثار في الجزيرة
فلما ذهبت أمس لاستماعه لم أكن منكرًا ولا مستغربا ولا دهشًا .
ولكني خرجت من قاعة المحاضرات أمس في كلية الآباء اليسوعيين
وقد أخذ العجب مني كل مأخذ ، وانتهى الدهش بي إلى أقصاه ،
فهذا الراهب الذي كان يتحدث إلينا في هذا الموضوع سنة ١٩٢٦
قد مضى في فنه ووقف جهده ووقته على العناية به والتفوق فيه وانتهى
إلى حيث أصبح رجلاً قد ابتكر فنا جديدًا من فنون البحث ، ووضع
له مناهجه ، وقواعده وأصبح يستطيع أن يضع له تاريخًا يصور نشأته
الأولى ونموه قليلاً قليلاً وانتهاءه إلى حيث وصفه لنا أمس من الإتقان
والكمال .

وأظنك توافقني عل أن هذا كثير جدًا بالقياس إلى رجل من رجال
العلم ، فإذا صدر عن رجل من رجال الدين كان خليقًا أن يثير العجب
ويدعو إلى الدهش ويفرض عليك أن تكبر هذا الرجل إكبارًا ، ولعل
من الحق على أن ألخص لك في أسطر مذهب هذا الراهب الخليق
بالإعجاب ، فهو فيما يظهر قد اشتغل بالطيران أثناء الحرب ثم اشتغل
بالطيران بعد الحرب في سورية . فلاحظ في أثناء ذلك ملاحظات
أثارت في نفسه الميل إلى شيء من التجربة والتحقيق .فقد كان يرى
أثناء الطيران حين كان بعيدًا عن الأرض مرتفعًا في الجو أشياء لم يكن
يراها حين كان يمشي على رجليه . فلما أراد أن يمتحن هذا ليتحقق

من أن حسه لا يكذبه اصطنع التصوير الشمسى ماشيًا على الأرض ومحلقا فى الجو ، فإذا التصوير يعطيه صورًا مختلفة متباينة ، وإذا المحلق فى الجو يرى على وجه الأرض أشياء لايراها الماشى أو المقيم . على أنه لم يكتف بالتصوير بل امتحن التصوير نفسه . فهو كان يرى الأرض مستوية أمامه ما أقام أو مشى ، لاعوج فيها ولا نشوذ ، فإذا صعد فى الجو رأى فيها ارتفاعًا وانخفاضًا ، فإذا احتفر حيث رأى الارتفاع استكشف آثارً كان يغطيها الرمل والتراب ، ولا تظهر للناظر الماشى أو المقيم وإنما تظهر له إذا ارتفع فى السماء . ومنذ انتهى إلى هذه الحقيقة مضى فى تجاربه هذه الأعوام الطوال ، ولست أصف ما أنفق من جهد وما بذل من عناية لينظم فنه ، ويحقق مناهجه ورقى التصوير الذى يصطنعه ، – ولكن الشىء الذى لم يبق فيه شك – هو أنه قد استطاع أن يجعل التصوير أثناء الطيران وسيلة من أحسن الوسائل وأصحها وأصدقها لاستكشاف الآثار التى تضمرها الأرض والتى تضمرها الصحراء خاصة ، وحسبى أن أحدثك بأنه عرض علينا أمس نماذج لما استكشفه أثناء الطيران فى صحراء الشام ، فهو لم يستكشف شيئًا أقل من حدود الإمبراطورية الرومانية مما يلى بلاد العرب من جهة والعراق من جهة أخرى ، وهو لم يستكشف شيئًا أقل من الطرق التى اصطنعها الرومان لتكون صلة بين الشام والخليج الفارسى ، أو لتكون صلة بين بحر الروم وهذا الخليج ، وواضح أن هذه الطرق هى التى كانت القوافل تتخذها طرقا للتجارة ، وواضح بعد هذا تأثير هذه الاستكشافات فى التاريخ الرومانى من جهة ، وفى الجغرافيا التاريخية

من جهة أخرى . وأكثر من هذا انه استكشف طائفة من الآبار والصهاريج التى كانت مضمرة فى جوف الأرض والتى اصطنعها الرومان فى العصور الأولى فأظهرها بعد خفاء ، وإذا هى تفيض بالماء الآن كما كانت تفيض به من قبل ، وإذا أهل البادية المعاصرون يجدون فيها ريا من ظمأ كما كان أهل البادية القدماء يجدون فيها ريا من ظمأ أيضًا . فهو لم يفد العلم وحده بهذه الاستكشافات ، وإنما أفاد الناس أيضًا وكشف لأهل البادية بعض مواضع فى الصحراء يستطيعون أن يجدوا فيها أمنًا وريا .

وتستطيع أن تسألنى بعد هذا ماذا يحزننى من هذه المحاضرة ومما صورت من هذا الفن الجديد ومما استكشف هذا الراهب اليسوعى الأريب ، نعم تستطيع أن تسألنى ما الذى يحزننى من هذا كله ، وأستطيع أن أجيبك أن الذى يحزننى من هذا كله أن هذا كله يقع ونحن عنه غافلون . يقع قريبًا منا فى الجزيرة أو فى صحراء الشام ونحن لانحسه ، ولا نشعر به ، ولا نلتفت إليه ومن يدرى لعل إخواننا الشرقيين من أهل الجزيرة والشام يجهلون منه مثل ما نجهل .

وبعد فهذا رجل راهب وقف نفسه على الدين والعبادة ثم رأى من الدين والعبادة أن يجاهد فى العلم ، ثم رأى من الدين والعبادة أن يتخذ الطيران أداة من أدوات الجهاد العلمى ، ثم وفق بفضل هذا الجهاد إلى ما يزيد العلم ويحققه وينفع الناس .

أفليس هذا الدرس خليقًا أن ينفعنا . أفليس هذا الرجل خليقًا أن أن يثير فى نفوسنا الإعجاب والميل إلى الاقتداء ، وما رأى رجال الدين منا فى هذا النحو من رجال الدين المسيحى ، لقد كانت الرهبنة خليقة أن تلغى جهد الناس ، فإذا هى تضاعفها وتفتح لها أبوابًا من النفع والإنتاج ، فما بال قوم منا قد أعفاهم الله من الرهبنة وأباح لهم الاستمتاع بثمرات الحياة يلزمون من الخمود والهمود مالا يلزمه الرهبان .

كما أحب أن أرى شيوخنا ينقبون فى الأرض ويصعدون فى الجبال ويطيرون فى السماء .

١٠

لهذه الأسباب أحب رجال الدين أكثر مما يحبون أنفسهم

ولم أفرغ بعد من التفكير فى ذلك الراهب اليسوعى الذى يطير ويصطنع الطيران وسيلة إلى البحث العلمى ، وينتهى من هذا البحث إلى فنون من الاستكشاف لها أبعد الأثر فى التاريخ والجغرافيا ولها أنفع الأثر فى حياة الناس .

لم أفرغ بعد من التفكير فى أمر هذا الراهب ، أو قل لم أفرغ بعد من التفكير فى الدرس الذى يلقيه هذا الراهب وأمثاله من علماء الرهبان ، والذى ينبغى أن نتدبره وننتفع به ونطيل النظر فيه ، ونستخلص منه لحياتنا ما ينبغى أن نستخلصه من العبر والعظات ، ولست أكره أن أعود إلى الحديث فى أمر هؤلاء العلماء البارعين من رجال الدين عند الأمم الأوروبية فقد ينبغى أن نلتمس الأسباب التى أباحت لهؤلاء الناس أن يشاركوا فى الحياة العلمية مشاركة لها خطرها العظيم فى كل فرع من فروع العلم ، وقد أطلت الحديث فى هذا منذ أعوام ، ولكنى لم أظفر بطائل ، وأنت تعرف أنى لا أحب اليأس ،

ولا أطمئن إليه ، وإنى إذا رأيت رأيًا مضيت فى إذاعته والذود عنه ، والدعوة إليه ، وألححت فى ذلك حتى أنتهى إلى الفوز أو أقضى من دون هذا الفوز . ولست أدرى لماذا لا أستطيع أن أطمئن إلى ما يطمئن الناس إليه من هذه الفروق العنيفة بين رجال الدين فى أوروبا ورجال الدين فى الشرق الإسلامى ، ولعل مصدر هذا أنى أحب رجال الدين الإسلامى أكثر مما يظنون ، وأكثر مما يحبون أنفسهم ، وإنى أكره لهم القصور والتخلف ، ولا أرضى لهم إلا الرقى والتقدم وأن يكونوا طلائع الناس فى السعى إلى الكمال والطموح إلى المثل الأعلى فى العلم والعمل .

ورجال الدين أحرار فى أن يصدقونى أو يسيئوا الظن بما أقول ، فالله يشهد أنى لا أسألهم حبًّا بحب ، ولا نصحًا بنصح ، وإنى لا أتقدم بنصيحة إلى الناس وأنا ألتمس عليها أجرًا ، أو أبتغى لها شكرًا .. فَلأَقُلْ إذن لرجال الدين ما أريد أن أقول مقتنعًا بما بينى وبين الله عز وجل من حسن النية ، وصدق الرأى ، وصفاء الضمير .

ولست أكره أن يكون هذا الحديث موضوعًا لأسمار الشيوخ حين يشهدون مجالسهم فى ليالى رمضان وموضوعًا لتفكير حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر .فمن يدرى لعل هذا كله أن يفتح للشيوخ بابًا من أبواب العمل على إزالة ما بينهم وبين رجال الدين الأوربيين من الفروق . مع أن الوضع الطبيعى لرجال الدين الأوربيين يجعل منهم طبقة خاصة متميزة تخالف الناس فى أطوار حياتهم ، فقد

استطاع رجال الدين أن يمتزجوا ببيئتهم امتزاجًا ويتصلوا بها اتصالا دقيقًا ويشاركوها فى العلم والعمل فيكون منهم القسيس الطبيب ، والقسيس الأديب ، والقسيس الطبيعى ، والقسيس الرياضى ، والقسيس الذى يطير فى الجو ، والقسيس الذى يحتفر فى الأرض . وإنا لنشهد كل عام — إذا كان الشتاء — قسيسا فرنسيا يعمل أمينًا فى متحف اللوفر ، ويزور مصر منقبًا عن الآثار ، ويتحدث إلينا بالمحاضرات للمتعة القيمة . وإنا لنشهد فى مصر راهبًا يسوعيا آخر قد وقف حياته على البحث عن آثار ما قبل التاريخ حتى أصبح مرجعًا عالميا لهذا العلم ، وحتى أصبح عمدة لمصلحة الآثار المصرية نفسها فيما استكشف من آثار ماقبل التاريخ . وقد حدثتك عن هذا الراهب اليسوعى الطيار ، ولابد من أن أحدثك فى يوم من الأيام عن الحبر الأعظم للكاثوليك ومكانته بين المستشرقين ، وعنايته بالآداب الشرقية والآثار الشرقية بوجه عام .

وهؤلاء الناس لاتصرفهم جهودهم العلمية مهما تختلف عن واجباتهم الدينية مهما تتعقد ، والأصل أن رجال الدين الإسلامى ناس من الناس لا يكونون طبقة متميزة لأن الله لم يفرض عليهم ما يفرق بينهم وبين غيرهم من المسلمين فى حياتهم اليومية العاملة ولكنهم مع ذلك قد امتازوا وانحازوا وانفصلوا عن بيئتهم التى يعيشون فيها ، فإذا لهم سيرة خاصة وأخلاق خاصة ، وعقلية خاصة ، وأكاد أقول لغة خاصة ، وهم قد فرغوا للدين وعلوم الدين ولم يعنوا بغيرها من علوم الدنيا ولم تظهر لأحد منهم مشاركة فى فن من هذه الفنون التى لا تتصل بعلوم الدين ، فما مصدر هذه الفروق العظيمة بين رجال

الدين هنا وهناك . لا أريد أن ألقى التبعة على رجال الدين وإنما التبعة على البيئة المصرية نفسها ، فهى التى حصرت رجال الدين فى ناحية ضيقة وحالت بينهم وبين الخروج منها ، قصرتهم على الأزهر ولم تكد تخرجهم منه إلا إلى القضاء الشرعى ، وإلى بعض الأعمال الدينية الخالصة .

وقد كان هذا القصر مفهوما فى بعض العصور ، ولكنه الآن غير مفهوم ولا ملائم للمصلحة بحال من الأحوال . فلابد من أن تزال هذه الفروق بين الأزهريين وغيرهم من الناس ؛ ولابد من أن يشترك الأزهريون مع المصريين فى الحياة العقلية كلها وأن يمتاز الأزهريون بعد ذلك بالتخصص فى علوم الدين . وأهم الأسباب التى فصلت الأزهريين من المصريين كافة فيما يظهر أن الحياة الحديثة لم تجد فى الأزهر من تحتاج إليه من الموظفين ولا فى علوم الأزهر مايلائم حاجة الحياة الجديدة فأنشأت المدارس المدنية على الطراز الغربى الخالص ولم تحاول إصلاح الأزهر نفسه لأنها كرهت ذلك أو لأنها وجدت مقاومة من الأزهريين .

وقد تقدمت المدارس المدنية وأخذت ترضى حاجات مصر الحديثة ثم أخذ فى إصلاح الأزهر فى وقت متأخر جدًّا فتخلف الأزهريون على كره منهم . ولابد من أن تهيأ لهم الأسباب لإدراك الذين سبقوهم والمساهمة فى الحياة العقلية العامة على اختلاف فروعها ، ولم أقرأ بعد قانون الأزهر الذى يدرس الآن ويراد إصداره بعد حين ولكن أرجح أنه لم يهيىء هذه الأسباب على الوجه الذى ينبغى ويلائم حياة العصر الحديث فليس المهم أن تمهد للأزهريين طرق الوصول إلى المناصب لأن

طرق المناصب قد أخذت تسد حتى على المدنيين الذين يهيئون أنفسهم لها ، وإنما المهم أن نهيىء للأزهريين أسباب الاتصال بالنشاط العقلى العام . وليس المهم أن تدرس أنواع العلم كلها فى الأزهر فهذا شىء لا سبيل إليه وهو يخرج الأزهر عن طبيعته ، وانما المهم أن يهيأالأزهريون تهيئة تمكنهم من أن يدرسوا ما يحبون درسه من أنواع العلم التى تدرس فى المعاهد الأخرى ، وليس المهم أن تعتبر شهادات الأزهر ودرجاته ملائمة لشهادات الدولة ودرجاتها وإنما المهم أن يُمكن الأزهريون من تحصيل شهادات الدولة ودرجاتها فوق شهاداتهم ودرجاتهم الخاصة أو دون شهاداتهم ودرجاتهم الخاصة إن أرادوا . يجب أن يتاح للأزهرى نيل الشهادة الثانوية المصرية والالتحاق بما أحب من كليات الجامعة وله مع ذلك أن يحصل شهادته الأزهرية الخاصة وله مع ذلك أن يقف نفسه على الحياة الدينية الخالصة أو على الحياة المدنية الخالصة أو أن يأخذ من هاتين الحياتين بطرف ، لن يستطيع الأزهر أن ينشئ معهدًا للآثار كما أنشأته الجامعة ولكن يجب أن يستطيع الأزهرى أن يتصل بمعهد الآثار فى الجامعة وأن يتخصص فى الآثار الإسلامية إن أراد أو فى الآثار المصرية القديمة إن أحب . لن يستطيع الأزهر أن ينشئ ما تحتاج إليه الدراسات العلمية العميقة من المعامل . ولكن يجب أن تتاح للأزهرى أن يتصل بكلية العلوم إن شاء وبكلية الطب إن أراد . ولا تقل إن هذا عسير فليس فيه شىء من العسر إن صدقت العزائم وحسنت النيات ، وأى شىء أيسر من الملاءمة بين التعليم الثانوى فى الأزهر والتعليم الثانوى فى المدارس المدنية . وكيف استطاع القسس والرهبان

أن يكونوا أدباء وأطباء وعلماء ومنقبين عن الآثار فى الأرض . ومستكشفين لها من الجو . وكيف استطاعوا أن ينشئوا جامعتهم فى بيروت وينافسوا بها الجامعات المدنية أشد منافسة وكيف استطاعوا أن ينشئوا مدرسة اللغات السامية فى القدس وينافسوا بها أرقى المعاهد لدراسة اللغات السامية . وكيف استطاعوا أن يكون منهم أمناء فى متحف اللوفر وأساتذة فى السوربون وأعضاء فى المجمع اللغوى الفرنسى ، وكيف لم تحل علومهم الدينية المعقدة بينهم وبين كل هذا النشاط .

كلا ليس من العسير أن يتصل الأزهر بالنشاط العقلى العام ويشارك فيه أحسن المشاركة وينتهى فيه إلى أعظم النتائج وأقومها ولكن بشرط أن يتسع أفق الإصلاح وأن تكون غايته شيئا آخر غير المناصب لأن المناصب لا تصلح غاية لمعهد علمى خالص ، وإنما يجب أن تكون الغاية هى العلم والدين من حيث هما علم ودين وأن تكون المناصب شيئًا يأتى فى المرتبة الثانية أو الثالثة . وأنا مطمئن بأن الأزهر حينئذ يستطيع أن يخرج قومًا ينقبون عن الآثار فى الأرض ويستكشفون الآثار من الجو ويتصرفون فى كل فرع من فروع العلم كما يتصرف فيها العلماء المدنيون .

فهل يفكر صاحب الفضيلة الاستاذ الأكبر فى هذا كله فإن شهر الصوم أصلح الأوقات للتفكير .

١١

فخر حزين

ومع أن الجو الجامعي لم يظلم في يوم من الأيام كما أظلم في هذه الأيام التي نعيش فيها ، ولم تتكاثف فيه السحب السود الثقال كما تتكاثف الآن ، فقد كان في هذا الجو الجامعي المظلم القاتم شعاع من نور أبقى وأثبت وأنفع من هذه الظلمات التي ركب بعضها بعضًا .

وقد كان الجامعيون أمس حين أخذ النهار ينصرف وأخذ الليل يبعث ظلماته في الجو شيئًا فشيئًا يلتفون حول زميل لهم وعلى ثغورهم ابتسامة حزينة بعض الشيء ، ولكنها مع ذلك راضية كل الرضى ، كانوا يودعون زميلهم « السنهوري » حين كان يأخذ القطار في طريقه إلى « بغداد » حيث سيعلي كلمة الجامعة المصرية وسينشر لواء الثقافة المصرية في مدينة السلام .

وكان الجامعيون يشعرون في أعماق نفوسهم بفخر حزين بعض الشيء ، ولكنه فخر على كل حال حين كانوا يرون واحدًا منهم بل من خيرتهم قد ندب إلى العراق ليرد إلى بغداد بعض ما لها من دين على القاهرة . وليقول لبغداد مقدار ما تضمر لها القاهرة من حب ونصح ومن ود ووفاء .

نعم وكان الجامعيون يتعزون عن هذه الأحزان العارضة بهذا السرور الدائم المتصل الذى يملأ قلوبهم حين يرون الشرق العربى قد عرف لجامعتهم حقها فأخذ يكبرها ويقدرها ، ويستعين بها على إصلاح أموره التى تتصل بالثقافة العالية ، فهو يرسل شبابه إلى كلياتها ليتعلموا فيها ،وهو يدعو أساتذتها إلى كلياته ومعاهده لينظموها وليعلموا فيها .

وكان اليوم يوم السنهورى فخف لوداعه زملاؤه الجامعيون من الكليات المختلفة وسيكون بعد قليل يوم « عزام » فيخف لوداعه زملاؤه الجامعيون من الكليات المختلفة أيضًا .وهم يشعرون بأنهم لا يودعون جامعيًّا سيرفع شأن الجامعة فى بغداد ، وإنما يودعون مصريا سيرفع شأن مصر فى الشرق العربى وسيؤدى عن مصر بعض ما هى مدينة به للعراق ، فأخص ما يجب أن يتصف به الجامعيون أنهم أبعد الناس عن الغرور وأقرب الناس إلى التواضع وأقدر الناس على أن يعرفوا ما عليهم قبل أن يعرفوا ما لهم .

والجامعيون المصريون لا يغرهم أن فريقا منهم يُدعى للتنظيم والتعليم فى العراق ، وإنما يسرهم هذا لأنهم يعلمون أنهم إن علموا العراق اليوم فقد علمهم العراق أمس .

هؤلاء المصريون الذين يسافرون مع السنهورى لتعليم القانون لن يزيدوا على أن يردوا إلى العراق جزاء قليلا من فضل العراق على مصر فى تعليم الفقه والقانون ، فقد مر الشافعى بالعراق وأقام فى بغداد

وسمع من أهلها قبل أن يأتى إلى مصر فيحمل إليها فقهه وعلمه ، وقد نشأ فقه أبى حنيفة فى الكوفة وأزهر وأثمر فى البصرة وبغداد قبل أن ينتقل إلى مصر فيكون له فيها الفقهاء والأئمة ، فإذا ذهب فقهاؤها اليوم إلى العراق ليعلموا الفقه الحديث فى بغداد فقديما جاء فقهاء العراق إلى الفسطاط ففقهوا أهل مصر فى مساجدها الجامعة .

ومهما يكن أثر السنهورى وأصحابه فى شباب العراق فلن يقاس إلى أثر هؤلاء الأئمة الذين حملوا إلينا فقه العراق وعلمه منذ القرن الثانى للهجرة . والجامعيون يعلمون أن زميلهم عزاما سيسافر إلى بغداد ليعلم فيها اللغة والأدب ولكنهم يعلمون أيضًا أن علوم اللغة إنما نشأت فى العراق ، وأن اللغة إنما دونت فى العراق ، وأن الأدب إنما نشأ ودون فى العراق وأن العراقيين هم الذين أهدوا إلى مصر حظها الأول من اللغة والأدب ، منذ القرن الثانى للهجرة .فنحن مدينون يؤدون دينهم ونحن أصدقاء يعينون أصدقاءهم ، بل نحن إخوان يقومون ببعض حق الأخوة لإخوان كرام عليهم أثرين عندهم .

كان الجامعيون يشعرون بهذا كله ، وهم يودعون السنهورى وسيشعرون بهذا كله حين يودعون رفاق السنهورى من أساتذة الحقوق وحين يودعون عزاما بعد أيام ، ولكنهم كانوا يشعرون بشىء آخر أقوى من هذا كله وأبعد أثرًا وهو هذه الصلات المتينة النقية التى تتوثق كل يوم بين هذين القطرين العربيين الكريمين .والتى تمهد أيسر الطرق وأقربها إلى هذا التعاون الكريم بين بلدين كريمين

يجب أن تتوثق بينهما أكرم الصلات .لقد شرفتنا العراق حين استعانت بنا على تنظيم التعليم العالى فى بغداد ، ولقد قدرنا هذا التشريف قدره فأرسلنا إلى العراق خيرة من عندنا من الأساتذة والمثقفين لأنا لا نرسلهم للتعليم وحده ، وإنما نرسلهم سفراء كرامًا بين شعبين كريمين .

أفلست ترى أن هذه الخواطر كلها خليقة أن تعزى الجامعيين عن هذا الجو المظلم القاتم الذى يعيشون فيه منذ حين .

أما أنا فقد كنت أجد بعض الحزن لما يصيب الجامعة من خطوب ولكنى أجد حزنًا أشد من هذا الحزن لفراق هؤلاء الأصدقاء الأعزاء إلى أجل قصير أو طويل ثم أجد فى هذه الخواطر التى قدمتها عزاء حسنًا عن هذا الحزن أو ذاك . وما أشك فى أن الزملاء الجامعيين كانوا مثلى يحزنون قليلاً ولكنهم سيبتهجون كثيرًا .

١٢

رسالة غاضبة من تاجر

وحالت أعمال النهار وأسمار الليل بينى وبين ما أخذت نفسى به من أحاديث رمضان ، فلما أصبحت هممت أن أستأنف هذه الأحاديث ولكن صاحبى قرأ علىّ نصين مكتوبين ، فأما أحدهما فقصير ظريف نشرته « الجهاد » تعتذر عنى فيه وتسمينى عميد الأدب وتعد القراء بأنى سأستأنف إمتاعهم بهذه الأحاديث منذ غد ، وأما الآخر فكتاب طويل جميل حمله إلى البريد فلما قرأه علىّ صاحبى رأيت كاتبه الأديب يضيق بأحاديثى ذرعًا وينبئنى بأنه كان ينتظر من هذه الأحاديث فائدة ونفعا وكان يستقبلها مبتهجًا مسرورًا ، فلما قرأها لم يجد ما كان ينتظر من فائدة ولم يظفر بما كان يرجو من نفع ، ولم يستبق ما كان يحس من ابتهاج وسرور .وليس من شك فى أن الكاتبين اللذين قرأت لهما هذين النصين صباح اليوم قد أخلصا النية وحرصا على الصدق والنصح وعلى المجاملة أيضًا فيما كتب أحدهما عنى ،وما كتب أحدهما إلىّ . فكاتب « الجهاد » مخلص فى أكبر الظن حين يعتقد أن « الجهاد »

تمتع قراءها بهذه الأحاديث ولولا ذلك لما ألح عليَّ صديقى توفيق فى أن أكتب ولما أبى عليَّ التنصل من كتابتها .وصاحب الكتاب مخلص صادق من غير شك حين أنبأنى بأنه لا يجد فى أحاديثى فائدة ولا نفعًا وهو ينبئنى بأنه يحب الصراحة ويؤثرها فى القول والعمل ، وأنا أحمد له هذه الصراحة أجمل الحمد ، وهو ينبئنى بأنه محب لى وراض عنى وأنا أشكر له حبه ورضاه وأعده بأنى سأبذل ما أملك من جهد لأكون عند ظنه بى ولأستأهل حبه لى ورضاه عنى ، وإن كان هذا عسيرًا أشد العسر كما سيرى بعد حين ، ولكن الشيء الذى لا شك فيه أنى أنفقت وقتا غير قصير أفكر فى هذين النصين المتناقضين لا لأن فى تناقضهما غرابة بل لأن حياتنا كلها نحن الكتاب مؤلفة من هذه المتناقضات .

هذا يقرأ فصلا من فصولك فيرضى عنك وهذا يقرأ الفصل نفسه فيسخط عليك ولهذا الراضى شركاء فى الرضى ولهذا الساخط شركاء فى السخط . ولن يزال الكاتب مقسما بين رضى الراضين عنه وسخط الساخطين عليه حتى يفرغ من الكتابة أو تفرغ الكتابة منه . والحمد لله على أنى من هذه الطائفة التى تصدق سخط الساخطين أكثر مما تصدق رضى الراضين وتطمئن إلى النقد والعيب أكثر مما تطمئن إلى الحمد والثناء .وأنا أؤكد لصاحب هذا الكتاب الطويل الجميل أنى رضيت عن كتابه أكثر ألف مرة ومرة مما رضيت عن هذه الجملة الظريفة التى تفضل عليَّ بها زميل من أصدقائى فى الجهاد . وقد

وعدت آنفا بأني سأحاول أن أرضى صاحب هذا الكتاب ما وسعتنى المحاولة ولأبدأ فأتخذه هو موضوعا لما بقى من هذا الحديث .

فهو تاجر من تجار القاهرة ولست أعرف من أمره شيئًا ، ولكن كتابه خليق أن يفكر فيه الذين يتخذون التحدث إلى الناس فى الصحف صناعة وفنًا .ولست أدرى أتثقف هذا التاجر الأديب فى المدارس ومعاهد العلم أم ثقف نفسه بقراءة الصحف والمجلات . ولكنه على كل حال قد انتهى من الثقافة إلى حد يرضينى ويثير فى نفسى كثيرًا من الإعجاب ، وأنا محب أشد الحب لهؤلاء الذين يثقفون أنفسهم وينتهون من ذلك إلى مشاركة الكتاب والنقاد فيما يكتبون وينقدون . أحبهم لأنهم يريدون ما لا تريده كثرة الناس ويأخذون أنفسهم بما لا يحب الناس أن يأخذوا به أنفسهم فيقرأون ويفكرون فيما يقرأون ثم ينقدون ويوفقون حين ينقدون ، ثم يكتبون ويجيدون فيما يكتبون ، وهذا التاجر الأديب يقرأ أحاديث رمضان ويفكر فيما يقرأ منها ما يلائم بين هذه الأحاديث وبين ما يشعر الحاجة إليه وما يظن أن كثيرًا من الناس يشاركونه فى الحاجة إليه . ثم لا يتردد فى أن يكتب إلى صاحب هذه الأحاديث بأنه لا يجد فى أحاديثه نفعًا ولا فائدة ، ولست أدرى كيف لا يبتهج كاتب حين يرى أن عناية الناس به ونقدهم له وتفكيرهم فيه وتقويمهم لاعوجاجه ، كل هذا قد انتهى إلى هذا الحد ، ولست أدرى كيف يستبيح الكتاب لأنفسهم أن يثقوا بأسمائهم ويعتمدوا على مكانتهم فى البيئات الأدبية فيكتبوا ما لا يرضون عنه وما يرضون عنه مطمئنين إلى أن أسماءهم ستغنى

عنهم ، وهم يعلمون أن بين الذين يقرءونهم أمثال هذا التاجر الأديب الذين لا تخدعهم الأسماء ولا تغرهم المكانات ولا يسيطر عليهم الثناء ولا تفسد عليهم آراءهم فى الكتاب وما يكتبون ، شهرة هؤلاء الكتاب وما يكتبون ، لابد إذن من أن يعرف الكتاب فى مصر أن عليهم من قرائهم رقيبًا دقيقًا يسجل عليهم سيئاتهم ويسجل لهم حسناتهم ، ولابد من أن يفكر الكتاب فى هذا الرقيب كما يفكرون فى الرقباء الفنيين الذين يسميهم النقاد ، بل أكثر مما يفكرون فى هؤلاء النقاد لأن هذا الرقيب لا يراقبهم بفنه وعقله وما يحيط بفنه وعقله من عواطف المشاركة والمنافسة والحب والبغض وإنما يراقبهم بقلبه وغريزته الصادقة وطبيعته السليمة البريئة .

وأخرى أثنى بها على هذا التاجر الأديب هى أنه قد رسم لى ولأمثالى من الذين يتحدثون إلى الناس فى رمضان برنامجا للحديث ، هو أشبه شىء بهذه البرامج التى يرسمها الأساتذة لطلابهم حين يكلفونهم الكتابة فى موضوع من الموضوعات ، وأنا أنشر هذا البرنامج كما رسمه صاحبه وكما كتبه صاحبه وإن كنت لا أعد باتباعه اتباعا دقيقا لأن منه ما لا أستطيع أن أعرض له مع الأسف الشديد وهو ما يمس السياسة ، ولأن منه ما لا أريد أن أعرض له لأن فى مصر قومًا هم أقدر وأجدر أن يعرضوا له وهو ما يمس الدين .

ولكنى على ذلك كله أنشر نص هذا البرنامج ليعلم الذين يكتبون فى الصحف أنهم لا يخلصون مما يكتبون متى فرغوا منه ، وإنما هم يكتبون فإذا قوم يحسبون عليهم ما يكتبون ويدققون فى الحساب .

قال صاحب البرنامج :

١ – ألم تعلموا أن الإنجليز قد أهانونا وظلمونا .

٢ – ألم تعلموا أننا الآن نحاربهم ويحاربوننا .

٣ – ألم تعلموا أن دور الملاهى تُملأ عن آخرها من شبابنا كل يوم مرتين أو ثلاثة .

٤ – وأنها تعلمهم كيف يشبون ولا خلاق لهم ولا دين .

٥ – وأن هذه هى إرادة الأعداء الظالمين الذين يريدون أن يصرفونا عن واجباتنا ليظلوا لنا غالبين وعلينا مسيطرين .

٦ – ألم تعلموا أنهم يجمعون من تلك الملاهى ثروة لا يستطيعون جمعها من أى عمل آخر .

٧ – ألم تعلموا أن السيدات قد ملأن الشوارع غاديات رائحات متبرجات يحدقن الأنظار ، ويخلبن العقول ويفطرن الصائمين – ألم تعلموا أن ديننا هو السلاح الذى لم يبق فى أيدينا سواه ندافع به عن كياننا .ألم تعلموا ..ألم تعلموا ..ثم ألم تعلموا .. إن لم تكونوا تعلمون فاعلموا .

بل نحن نعلم يا سيدى ونعلم ثم نحن نعلم ونعلم .ونحن نبذل ما نستطيع وما لا نستطيع لنعالج هذه الموضوعات كلها ، وانظر فى الصحف فهل منها صحيفة تهمل موضوعًا من هذه الموضوعات ،

ولكنك لا ترضى بالقليل ولا بالكثير ، ومهما يكتب الكاتبون ومهما يصلح المصلحون فلن ترضى ، ويعجبنى منك هذا السخط فإن الاطمئنان آية الضعف وعلامة الخمود والله عز وجل يعصم مصر والمصريين من الضعف والخمود .

لُم يا سيدى وألح في اللوم ولا ترض منا بشىء وكلما كتبنا لك فقل لنا إنا بعيدون عن أن نبلغ رضاك فإن سخطك هذا يصور فى نفوسنا سخط المصرى على حاضره وأمل المصرى فى مستقبله وطموح المصرى إلى مثله الأعلى .

١٣

أنا مدين للأزهر بحياتى العقلية

وكاتب آخر أديب يأبى أن يدع هذه الكلمات تمر كما تمر الأحاديث . فيقف عند بعضها ، ويجادلنى فيه ويطالبنى بإكماله ، وينكر علىَّ أن أنقد ولا أقترح وسائل الإصلاح ومناهجه ، وهذا الكاتب الأديب أستاذ من أساتذة الأزهر الشريف يدرس فى كلية الشريعة وهو لا يجادلنى فى كتاب خاص ، وإنما يجادلنى فى السياسة كأن الله عز وجل قد كتب علىَّ ألا أذيع شيئا حتى يكون مصدرا للأخذ والرد ، ومثارًا للحوار والجدال ، وأعوذ بالله أن أكره هذا أو أن أضيق به ، بل أعوذ بالله أن أقصر فى شكر الله عز وجل على هذه النعمة التى أتاحت لى عناية القراء بما أكتب والسامعين بما أقول وأنا حريص على أن أكون عند ظن الأستاذ محمد عبد السلام القبانى فلا أكتفى بالنقد وإنما أضيف إليه الوسائل التى تؤدى إلى تحقيق ما أريد من الخير . وأنا لم أكتب ذلك الفصل عن رجال الدين فى مصر وفى أوروبا تلهية ولا تسلية فإن فى الموضوعات الأخرى سعة للتلهية والتسلية وإنما صدرت فى ذلك الفصل عن حب للأزهر وحرص

على أن يؤدى واجبه على أحسن وجه ممكن ، وضنًا برجال الدين الإسلامى على موقفهم هذا المؤلم الذى يعتزلون فيه الناس اعتزالا وتقطع فيه الأسباب بينهم وبين الحياة العقلية العامة قطعا . وسواء رضى الأزهريون أم لم يرضوا فإنى قد نشأت فى الأزهر وأخذت عن أهله أصول المعرفة وتثقفت فيه الثقافة الأولى ، فأنا مدين له بحياتى العقلية ، وأنا ملح فى أن أؤدى إليه هذا الدين ولو على كره من أهله لأنى لا أريد أن أؤديه كما يحبون هم بل كما يفرض ذلك علىَّ ضميرى ورأيى الذى أجتهد فيه ما استطعت وأنصح به ما وجدت إلى النصح سبيلا .

وقد كان الأزهر أخصب البيئات المصرية وأحسنها استعدادًا لقبول الثقافة الحديثة الصحيحة التى تمتاز بالسعة والعمق ، لأن الدرس فيه لم يكن مقيدا بالبرامج التى تكتب على الورق والمناهج التى تصدر بها القوانين والنظم التى تقيد العقل ، والصحف التى تعد على الأساتذة والطلاب عدًّا .

كان الأزهر معهدا يدرس فيه العلم لأنه العلم لا يحد الدرس فيه إلا بطاقة الأستاذ المعلم والطالب المتعلم ، وكانت حرية الدرس فى الأزهر كأحسن ما تكون حرية الدرس سعة وانطلاقا ، يصطدم فيه الرأى بالرأى والمذهب بالمذهب ، فلا ينشأ عن هذا الاصطدام إلا ما يكون من الحوار العنيف والجدال الشديد الذى يذكى جذوة البحث ، ويزيد خصب العقل ، ونفاذ البصيرة ، وحدة الملكات . وليس الأذى الذى يصيب أصحاب الآراء من سخط الرأى العام

أو الرأى الخاص شرًّا فى ذاته ، وليس هو خطرا على حرية الرأى ، لأن حرية الرأى إنما تعظم وتنمو بمقدار ما تجاهد وتلقى من أذى . وإنما الشر كل الشر والخطر كل الخطر أن ننظم حرية الرأى العلمى بالقوانين وأن نفرض عليها القيود والعقوبات ، وقد كان الأزهر إلى أول هذا القرن بريئا من هذه السيئات كلها وكان جو البحث فيه حرًّا طلقا يظهر فيه صاحب الرأى الجديد فيصطدم بالمحافظين ، ويشتد سخطهم عليه ، وجدالهم له ، وتشهيرهم به ، ولكنه لا يؤذى فى نفسه ولا فى عمله ، ولا فى منصبه ولا تنظم له المحاكم ، ولا يفرض عليه العقاب . وبفضل هذه الحرية السمحة كان الأزهر أخصب البيئات المصرية وأحسنها استعدادًا لقبول الثقافات الصحيحة والإنتاج فيها . وقد أخذ فى تنظيم الأزهر منذ أوائل هذا القرن .

وكان هذا التنظيم فى أول أمره وفى أيام الأستاذ الإمام ملائما لطبيعة الأزهر لا يغيرها ولا يفسدها إنما كانت علوم حديثة مجهولة فى الأزهر تقرر فيه شيئا فشيئا وتدرس فيه قليلاً قليلاً ؛ ولو مضى إصلاح الأستاذ الإمام فى الأزهر على وجهه ولم يلق من مقاومة السياسة ما لقى لكان حظ الأزهر الآن من مشاركة العالم الحديث فى علمه وثقافته ومن الاحتفاظ بطبيعته الخاصة عظيما مغنيا .

فأحسن الله عزاء الأزهريين عن هذا الوقت الذى ضاع عليهم وعن ربع قرن ذهب فى التجارب التى لم تغن ، ولم تجد نفعا .

والأزهر يستأنف أمره الآن ويعيد النظر فى نظمه وقوانينه ،

فما أجدره أن ينتفع بما سبق من تجربة وما أجدره أن ينظر إلى ما يصنع رجال الدين فى البلاد الأخرى وأن يأخذ من ذلك بأصلحه وأنفعه وأشدد ملاءمة لطبيعته وموافقة لما عليه من واجبات ، وقد تمنيت لو فتحت للأزهريين أبواب الثقافات الحديثة المختلفة ، وأؤكد للأزهريين أن فتح هذه الأبواب ليس عسيرًا ولا شاقا فضلاً عن أن يكون متعذرًا أو مستحيلاً . لا أريد منهم إلا شيئًا واحدًا ، وهو أن يلائموا بين تعليمهم الثانوى وبين التعليم الثانوى العام على نحو من أنحاء الملاءمة يمكن النظر فى تفصيله إذا تحقق التعاون بين الأزهر والجامعة . وهذه الملاءمة إن تمت تمكن الطالب الأزهرى فى التعليم الثانوى من أن يظفر بالشهادة الثانوية للأزهر أولاً ومن أن يتقدم إن أراد للظفر بالشهادة الثانوية الحكومية ثانيا . فإن تم له ذلك فقد فتحت له الأبواب جميعًا . لأنه يستطيع أن يدخل أى كلية من كليات الجامعة ولأنه يستطيع أن يبقى فى الأزهر ويمضى فى درسه الأزهرى الخاص ولأنه يستطيع أن يلائم بين درسه الأزهرى الخاص ، وبين الدراسات الجامعية المدنية ، وسيقول رجال وزارة المعارف للأزهريين إن هذا عسير أو مستحيل لأن النظم والقوانين لا ترضاه ولا تعين عليه ، ولكنى أؤكد مخلصًا للأزهريين أن هذا يسير كل اليسر إن حسنت النية وصحت العزيمة وصدق الرأى ، فليس التعليم الثانوى فى مصر أصعب ولا أشق من التعليم الثانوى فى فرنسا ، بل هو أيسر منه وأهون ، وكثير جدا من طلاب المدارس الدينية المسيحية يتهيئون فى

مدارسهم للشهادة الثانوية الفرنسية ويظفرون بها دون أن يمنعهم ذلك من المضى فى درسهم الدينى ومن أن يصبحوا قسسًا ورهبانًا .

وليس التعليم فى مصر أعسر ولا أشق ، ولا أحسن من التعليم العالى فى أوربا ، وكثير جدًا من طلاب المدارس الدينية يتصلون بالسوربون وغيرها من الجامعات ويظفرون منها بالليسانس والدكتوراة وينتهون إلى التعليم فيها ولا يمنعهم ذلك من أن يكونوا قسسا ورهبانا .

فما بال الأشياء ميسرة فى أوربا ومعسرة فى مصر ، وما بال اللاهوت المسيحى لا يمنع أصحابه من الاشتراك فى الحياة العلمية الجامعية فى أوربا ، وما بال الدراسات الإسلامية تحول بين أصحابها وبين الدراسات الجامعية فى مصر . إن هذه الصعوبة لا تأتى من طبيعة الإسلام فإن تاريخ الإسلام كله بين أيدينا وليس فيه ما يثبت أن رجال الدين فى أى عصر من العصور الإسلامية غير هذا العصر الحديث قد كانوا يعيشون فى عزلة عن البيئة العلمية التى تحيط بهم .

لقد كان على رجال الدين الإسلامى أن يجمعوا بين الفقه والفلسفة أو بين الفقه واللغة أو بين التوحيد والرياضة أو بين الفقه وما شئت من الحياة العملية ، ولعلى لا أخطئ إن قلت إن أبا حنيفة رحمه الله كان من أئمة الفقه والكلام وكان يشتغل مع ذلك بالتجارة ليعيش .

فطبيعة العلوم الدينية الإسلامية ليست مباينة لطبيعة العلوم الحديثة ولا مضادة لها ، والإسلام أطهر وأرق وأسمح من أن يحول بين رجاله وبين البحث عن الحق فى أى فرع من فروع العلم ، ولن يكون اللاهوت المسيحى أو الإسرائيلى أسمح من اللاهوت الإسلامى ، ومن زعم شيئا كهذا فقد زعم سخفًا .

وإذن فليست تنشأ الصعوبة من طبيعة الإسلام ولا من طبيعة العلم الحديث وإنما تنشأ من طبيعة النظم التى توضع للتعليم فى الجامعة والأزهر ووزارة المعارف ، وأى شىء أيسر من تغيير النظم ، بل أى شىء أوجب من تغيير النظم حين تريد المصلحة هذا التغيير . ولقد حاولت هذه التجربة فى وقت من الأوقات ففتحت للأزهريين وطلاب دار العلوم بابا إلى كلية الآداب ، وأؤكد أن هذه التجربة لو مضت لآتت خير الثمرات ولكن عفا الله عن الذين قطعوا الطريق على هذه التجربة ولم يمكنوها من أن تتم .

ليأخذ الأزهريون إذن فى الملاءمة بين تعليمهم الثانوى وبين التعليم الثانوى العام فهذه هى الخطوة الأولى إلى الإصلاح الصحيح وليأخذ الأزهريون مع ذلك فى تحقيق التعاون الفعلى بينهم وبين المعاهد الجامعية التى يستطيعون أن يتصلوا بها الآن . فهذه خطوة ثانية تنفع كل النفع إن استطاعوا أن يخطوها ؛ فأما تفصيل ما يصنعه رجال الدين فى أوربا ليبلغوا ما بلغوا من المشاركة فى العلوم المدنية فأمره أيسر من أن تكتب فيه الفصول فى الصحف ، وإن صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر

لقادر إن أراد على أن يحصل فى أقرب وقت وأقصره على نظم المدارس الدينية فى أوربا ووسائل الاتصال بينها وبين الجامعات ، وهل يجهل الأزهريون أن الرهبان المسيحيين الأوربيين يعيشون فى مصر وينشئون مدارس مدنية تنافس مدارس الدولة المصرية أشد المنافسة وأقواها .إن الذين يعلمون فى كلية اليسوعيين رهبان وهم يهيئون الطلاب المصريين وغير المصريين لنيل الشهادة الثانوية المصرية والشهادة الثانوية الفرنسية .

أرأيتم أنى حين أقترح عليكم ما أقترح لا أكلفكم شططًا ولا أعرض عليكم مثلا بعيدة ، وإنما أعرض عليكم مثلا قائمة بين أيديكم . سبحان الله إن لرجال الدين فى فرنسا وغير فرنسا مدارس مدنية يختلف إليها أبناء الطبقات العليا ، وهم بهذه الطريقة يحتفظون للدين المسيحى فى فرنسا بقوة لا تعدلها قوة لأنهم يربون أبناء طبقاتها العليا ، وأنتم تعلمون مع ذلك أن الحكومة الفرنسية قد فصلت بين الكنيسة والدولة .فما الذى يمنعكم أن تعملوا لعلكم أن تستطيعوا فى يوم من الأيام أن تنشئوا فى بلادكم مدارس مدنية يقوم بالتعليم فيها رجال الدين الذين أخذوا من الثقافة المدنية بحظ عظيم فينشئون فريقًا من الشباب المصرى منشأً دينى السيرة .مدنى العقل ومن الذى زعم أن الرهبان وحدهم هم القادرون على أن ينشئوا المدارس المدنية فى بلادهم الأوروبية وفى بلادنا الإسلامية فينشروا فيها دعوتهم للمسيحية نشرًا قويا ممكنًا . من الذى زعم أن علماء الإسلام لا يستطيعون أن يذهبوا

هذا المذهب ويسيروا فى بلادهم الإسلامية سيرة الرهبان من اليسوعيين وغير اليسوعيين .

كلا . إن آفاق الحياة الخصبة المنتجة أمام الأزهر والأزهريين لأوسع جدًّا مما يظنون ، فليفتحوا عيونهم وليفتحوا قلوبهم ولتصدق عزيمتهم على الإصلاح الصحيح فإنهم إن فعلوا بالغون أقصى ما يريدون .

١٤

بين انتصار بدر والدستور

« ومضى رسول الله ﷺ حتى إذا كان دون بدر أتاه الخبر بمسير قريش فأخبر به رسول الله ﷺ أصحابه واستشارهم ، فقال المقداد بن عمر النهرانى : « والذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك حتى تنتهى إليه » . ثم قال رسول الله ﷺ : « أشيروا علىّ » وإنما يريد الأنصار ، فقام سعد بن معاذ فقال : أنا أجيب عن الأنصار كأنك يا رسول الله تريدنا ، قال : أجل . قال : فامض يا نبى الله لما أردت فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت هذا البحر فخضته لخضناه معك ما بقى منا رجل واحد . فقال رسول الله ﷺ : سيروا على بركة الله فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين فوالله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم »(١) .

ثم نزل رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار أدنى بدر عشاء ليلة جمعة فى السابع عشر من رمضان ، فلما أصبحوا صدق

---

(١) طبقات ابن سعد جزء ٢ صفحة ٨ .

الله وعده فأنزل نصره على نبيه وعلى المسلمين . وكان التأهب لهذا الفتح والانتهاء إليه والابتهاج به فى مثل هذه الأيام من مثل هذا الشهر الكريم فى السنة الثانية للهجرة .

ولم أرو هذا الحديث الذى رويته لأنى أريد أن أصف وقعة بدر أو أستخلص ما يملؤها من العبر والعظات ، أو أقف عند ما ظهر فيها من حسن بلاء الله عز وجل عند النبى ﷺ وعند الذين آمنوا به فصدقوه ونصروه ، أو أتلو ما نزل فيها من القرآن الكريم ، فإن هذا الحديث القصير لا يتسع لشىء من هذا وإنما رويت ما رويت وحدثت من هذه القصة بما تحدثت به لأنى ذكرت هذه القصة حين أنزل الله نصره على المصريين ظهر السادس عشر من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة وألف للهجرة . فقد كنت أفكر فى هذا الاضطراب العنيف الذى ملأ حياة المصريين هذا العام أثناء شهر الصوم فغلت له القلوب غيظا وثارت له النفوس حفيظة وانبسطت فيه الأيدى بالشر ووَجِدَ فيه بعض المصريين على بعض ونقم فيه بعض المصريين من بعض وأقدم فيه المصريون على أمور لا يحبها الصوم ولا يألفها ولا تحسن بالصائمين .

كنت أفكر فى هذا كله محزونا آسفا ، وكنت أستغفر الله صادقا مخلصا لقومى من هذه الخطيئة التى تورطوا فيها واضطروا إليها اضطرارًا فى شهر يحب الأمن والدعة ، ويحب الله فيه للمسلمين اطمئنان النفوس وصفاء القلوب ، وإنى لفى ذلك ، وإذا الأنباء تنتهى

إليَّ بأن الله قد ألف بين قلوب المصريين بعد أن كانت متنافرة ، وجمع كلمتهم بعد أن كانت متفرقة ، ووحد رأيهم بعد أن كان متشعبا ، وما كدت أتم التفكير فى هذه النعمة التى أنزلها الله على المصريين حتى انتهت إلى الأنباء بأن الله قد أتم نعمته فرد إلى المصريين دستورهم وحفظ عليهم حقهم فى الحرية التى جاهدوا فيها وغضبوا لها ، وأقسموا ألا يعرفوا الاطمئنان ولا الهدوء ولا الأمن حتى ترد عليهم كاملة موفورة .

هنالك ذكرت هذه القصة الكريمة . وهنالك طلبت إلى صاحبى أن يقرأها علىَّ فى كتاب من كتب السيرة فما كاد صاحبى يمضى فى قراءة ابن سعد حتى وقفت عند هذا الحديث الكريم الذى رويته آنفا . فإذا رسول الله ﷺ تأتيه الأنباء بأن قريشا قد عبأت له وخرجت للقائه فى عددها الضخم وعدتها الكاملة ولم يكن قد خرج بالمسلمين قبل ذلك لقتال ، ولم يكن قد شهد بهم موقعة من المواقع ، ولم يكن قد أخرجهم فى هذه المرة لحرب ذات خطر ، وإذا هو يستشيرهم ويريد أن يعلم علمهم ، ويتبين ضمائر نفوسهم ، لا يمضى بهم إلى العدو ولا يرجع بهم إلى مكان الأمن حتى يعرف رأيهم فيما يحبون من جهاد العدو أو إيثار العافية ، وإذا كلمتهم مجتمعة على طاعته وإذا آراؤهم متفقة على التسليم لما أراد ولما أراد الله ، وإذا أحدهم يقول له : لو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك حتى تنتهى إليه ،

وإذا الآخر يقول له عن الانصار : لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما بقى منا رجل واحد .

وإذا الكلمة مجتمعة والأهواء ملتئمة والآراء متفقة والنيات صادقة والقلوب خالصة والاستعداد للتضحية كأحسن ما يكون الاستعداد للتضحية وإذا النبى يسير بهم على بركة الله وينبئهم بأن الله قد وعده إحدى الطائفتين ، وإذا الله يصدق وعده وينزل نصره ويتم نعمته ويقيم للإسلام بناءه الخالد .

ذكرت هذا كله ، وذكرت أن هذا كله قد وقع فى مثل هذه الأيام ، وذكرت أن الله عز وجل قد علم اجتماع كلمة المسلمين واتحاد رأيهم فأتم عليهم نعمته ، وأن الله عز وجل قد علم اجتماع كلمة المصريين واتحاد رأيهم فى هذه الأيام من هذا الشهر الكريم فأتم عليهم نعمته ، فتفاءلت وأحببت أن تشترك معى فى التفاؤل ، أيها القارئ الكريم . وما أرى إلا أنك توافقنى على أن فى هذه المصادفة فألا حسنا ، وما أرى إلا أنك توافقنى على أن من حقنا أن نبتهج بما انتهينا إليه فى نفس هذه الأيام التى بارك الله فيها على الإسلام والمسلمين فأنزل فيها القرآن بأول عهد النبى بالرسالة ، ثم أنزل فيها النصر بعد طول المحنة وشدة البلاء .

اللهم فليكن هذا فألا حسنًا صادقًا وليكن اجتماع كلمة المصريين وما أنزلت عليهم من النصر أساسًا لوحدة لا فرقة بعدها ولاتفاق لا خلاف بعده .

١٥

ليلة مع أهل الكهف

كان حظ الفرقة القومية التى ألفتها الحكومة للتمثيل العربى ، وحظ القصة الأولى التى مثلتها أمس ، وحظ كاتب هذه القصة الأستاذ توفيق الحكيم حسنًا حقا ، فقد كنا نشفق على الفرقة والقصة والكاتب ، أن يفتتح موسم التمثيل وقلوب الناس محزونة ، ونفوس الناس كئيبة ، وبال الناس غير فارغ لغير السياسة من الشؤون ، ولكن الله أراد أن يكون يوم الخميس السادس عشر من شهر رمضان يومًا سعيدًا تجتمع فيه كلمة المصريين ويعلن فيه توفيق الحكومة إلى استصدار الدستور ، وتفضل جلالة الملك[1] بإجابة ما طلبته الأمة والحكومة معا . فأقبل الناس على دار الأوبرا وقد اطمأنت قلوبهم ورضيت نفوسهم وزال عن وجوههم غشاء الاكتئاب ولم يشغلهم عن التمثيل حزن ولا أسى وأن شغلهم عن التمثيل بعض الشيء بقية من العناية بالسياسة وتعجل لصدور الأمر الملكى بإعلان الدستور . فكان الناس يتحدثون فى ذلك قبل أن يرفع الستار ، وكان من الحق أن يتحدثوا بالقصة المنتظرة والتمثيل

---

(١) الملك فؤاد الأول .

المنتظر ، وكان الناس يتحدثون فى ذلك بين الفصول فى أكثر الوقت ، وكان من الحق أن يتحدثوا بما تركت هذه الفصول فى نفوسهم من أثر حسن أو سيء .

ولكنهم على كل حال قد استقبلوا الفرقة والقصة والتمثيل راضين مطمئنين ولو قد فرغ بالهم حقا لكان حظ القصة والفرقة من عنايتهم ورضاهم أعظم جدًا من الحظ الذى ظفرنا به مساء أمس ، وتستطع أن تصدقنى ان أنبأنك بأن من الناس من كان يتحدث أثناء التمثيل بالسياسة وأحداث السياسة ، وما كان منها وما ينتظر أن يكون .

ولست أدرى لم أقبل هؤلاء الناس على الأوبرا وقد كان الخير لهم وللتمثيل أن ينفقوا ليلتهم هذه كما أنفقوا لياليهم الأخرى فى الدور والأندية ، أو فى المجامع والقهوات يخوضون فى حديث السياسة ويضربون أخماسا لاسداس ، ولكن كثيرا منهم لم يقبلوا أمس على دار الأوبرا شوقًا إلى التمثيل أو رغبة فى شهوده ، وإنما أقبلوا لأن أشخاصهم لم يكن بد من أن تظهر فى هذا الاجتماع فقد كان اجتماعًا رسميا أو كالرسمى .

على أن هناك أشياء أخرى قد حالت بين الفرقة والقصة وما كان ينبغى لها من العناية وفراغ البال وما كان يستحقان من الإعجاب والإكبار ، فقد يظهر أن نفسية النظارة لم تفهم على وجهها فى هذا الاجتماع الأول من اجتماعات التمثيل العربى ، ولم يلاحظ ما لابد

من ملاحظته وهو أن النظارة حين يقبلون على ملعب من الملاعب وحين يقبلون لشهود التجربة الأولى لقصة من القصص يقبلون وفى أنفسهم شوق شديد إلى القصة وتعجل شديد للتمثيل ، وكان ينبغى أن يلاحظ هذا ولا ينتظر بالناس وقت طويل قبل رفع الستار مهما تكن الأسباب التى تدعو إلى هذا الانتظار ، ولكن الحفلة لم تبدأ إلا بعد أن تمت الساعة التاسعة وتقدمت الساعة العاشرة وضاق الناس بهذا الصبر ، فصفقوا بأيديهم وخفقوا بأرجلهم وانفرجت شفاههم عن بعض الصوت ، ثم ألقى السلام الملكى فوقف الناس إجلالا ووقف الناس ابتهاجا أيضًا بأن التمثيل سيبتدأ فورًا . ثم جلس الناس ولكنهم لم يروا تمثيلاً ولا ممثلين وإنما سمعوا قارئا يتلو آيات كريمة من سورة الكهف ، وقد صغت قلوب الناس ونفوسهم إلى هذه الآيات الكريمة يرتلها صوت عذب رخيم . ولعل بعضهم أحس شيئا من الرضى بتلاوة القرآن الكريم مقدمة لقصة موضوعها أهل الكهف ، ولكن – وهذا شيء محزن حقا – لم يستطع جمهور النظارة أن يساير القارئ أثناء قراءته الا وقتًا قصيرًا . ثم أخذنا نسمع قوما يسعلون وآخرين يتحركون ، وأحسسنا اضطرابًا فى الناس ما كان ينبغى أن يحس والقرآن يتلى ، وما كان ينبغى أن يعرض القرآن فى جماعة قد أقبلت تشهد التمثيل ، فأبطأ عليها الممثلون ، والمسلمون جميعًا يسمعون سورة الكهف فى كل أسبوع ، وكثير منهم يسمعها أثناء الليل فى شهر الصوم من حين إلى حين ، وكثير منهم قد قرأها فى

المصحف الشريف فلم تكن الحاجة تدعو حقًّا إلى تلاوتها وإلى تلاوتها بهذا الترتيل الذى يحتاج إلى وقت طويل ، على أن القارئ لم يستطع أن يتم القصة كما نصها القرآن الكريم بل قطعها قبل أن يبلغ آخرها مخافة أن يشتد استعجال النظارة ولكن استعجال النظارة قد كان يمتحن حقًّا أمس فإن التمثيل لم يبتدئ بعد أن فرغ القارئ من ترتيله ، وإنما ابتدأت موسيقى طويلة ، لها أول وليس لها آخر ، مختلفة متنوعة . وعرضت معها مناظر كأنما أريد أن تكون الموسيقى والمناظر تمهيدًا للتمثيل ، ولكنه تمهيد طال حتى ثقل وأفسده الملل ، وقطعه الناس بإظهار الضجر ، وأخيرًا وبعد لأى بدىء التمثيل .وكان الحظ العظيم من شوق النظارة ونشاطهم قد استنفد فى الانتظار الفارغ أولاً ثم فى الاستماع للقرآن الكريم ثم فى الاستماع لهذه الموسيقى والتبرم بها فلم يبلغوا التمثيل إلا وقد أدركهم الفتور .

وهنا تظهر براعة الكاتب والممثلين حقًّا ، فهم قد استطاعوا بعد لحظات أن يذودوا هذا الفتور عن الناس ، وان يردوا عليهم نشاطهم موفورًا وأن يشغلوهم بما يقولون ويعملون ، وإن كان قولهم قد كان أكثر جدًّا من عملهم .

وانقضى الفصل الأول وقد عاد الناس إلى الفرقة والقصة ومنحوهما حظًّا من الثقة ، وانتظروا منهما خيرًا كثيرا ثم ، كان الفصل الثانى فملكت القصة والفرقة قلوب النظارة وعقولهم واستهوت أفئدتهم

وألبابهم ، وأنستهم من غير شك طول ما انتظروا كما أنستهم السياسة أيضا أثناء التمثيل .فقد كان هذا الفصل بديعا لحُسن ما امتزجت فيه الفكاهة بالجد ولحُسن ما برع الممثلون فى تصوير الفكاهة والجد ، ومن هنا كان التصفيق فى آخر الفصل الثانى مضاعفًا قويًّا لا فتور فيه . ومن هنا لم يبق شك عند من شهد القصة من النقاد فيما أظن فى أن القصة والفرقة صائرتان إلى نجاح محقق . ولم يكد يرخى الستار حتى شغل الناس بحديث القصة والتمثيل أثناء الراحة عن أى شىء آخر .وعادوا إلى الفصل الثالث وقد استأنفوا نشاطهم وجدد لهم شوق عظيم ، وعرف الكاتب والممثلون حق المعرفة كيف يستغلون هذا النشاط وكيف يكافئون هذا الشوق وكيف يرضون النظارة إلى أقصى حدود الرضى لولا شىء من طول الحوار فى بعض المواضع ما زال اتقاؤه ميسورًا لأنه إن حسن فى القراءة فقد يشق فى التمثيل ، ولولا شىء من الضعف تداركه ميسور فى موقف « برسكا » التى تحتاج بعض الشىء إلى أن تنسى عصرنا الحديث وتتعمق العصر القديم الذى وقعت القصة فيه . ولولا شىء من الإسراف يمكن تجنبه فى الحماسة ورفع الصوت منشؤه أن الممثلين لم يذوقوا العصر القديم كما ينبغى أن يذاق ، وأنهم فيما يظهر لايزالون يعتقدون أن أدوات الممثل تشبه أدوات الخطيب ، على حين قد يبلغ الممثل بالأناة والرفق ولين الصوت وعذوبة اللهجة ما لا يبلغه بالحماسة والعنف واضطراب الحركات . ولست أخفى على برسكا أنى ضقت بعض الشىء بلهجتها حين أخذتها

الغيرة وأخذت تذود عنها صاحبها ، فهى لم تكن قديمة بحال من الأحوال وهى – وأرجو ألا تغضب – لم تبعدنا عما ألفنا من غير النساء العاديات أو من غضب النساء العاديات حين يخاصم بعضهم بعضًا . وأنا أعرف أن موقفها شاق عسير ، وأشهد أنها وفقت فيه إلى كثير من الإجادة ولكنى أعتقد أنها تستطيع أن تبلغ من التوفيق أكثر جدًا مما بلغت وأنها تستطيع أن تبلغ هذا إذا اقتصدت فى رفع الصوت حين تغضب وحرصت أثناء هذا الغضب على الحزن العميق الوقور أكثر من حرصها على الحزن الصاخب الحاد ، وقد كانت فى آخر الفصل من دون الملعب نغمة موسيقية عذبة جعلت ختام هذا الفصل مؤثرًا حقًا .

ولم يكد يلقى الستار على هذا الفصل حتى كان نجاح القصة والفرقة حقًا لا شك فيه وحتى لم أتردد فى إعلان أسفى لأن الأستاذ توفيق الحكيم لم يكن حاضرا ولم يقدم إلى هذا الجمهور المبتهج السعيد ليأخذ بحظه من الرضى والسعادة . ولكن أنبئت أنه قد آثر الفرار من هذه الموقعة التى كانت بينه وبين جمهور النظارة . فانتصر غائبا .

ثم عدنا إلى الفصل الرابع وليتنا لم نعد فقد كان هذا الفصل طويلاً وأخشى أن أقول مملا ، وكان بعيدًا كل البعد عن أن يلائم الملعب وإن كان ممتعًا كل الإمتاع حين يخلو إليه القارئ ، وإذا صدقتنى الذاكرة فإنى أظن أنى قد لاحظت طول هذا الفصل ونصحت باختصاره ، واحسنه قد اختصر ولكن حاجته إلى الاختصار ما زالت قائمة، وما رأيك فى أهل

الكهف وقد عادوا إلى كهفهم ، وقد أدركهم الموت وهم ينتظرونه ويتلقونه ويفلسفون ويمعنون فى الفلسفة حول الزمان والإنسان والتاريخ ، وما رأيك فى أهل الكهف ، وقد مات منهم اثنان ثالثهم كلبهم ثم ظل ميشلينيا وحده ينتظر الموت ويتلقاه ويفلسف فى الزمان والإنسان والتاريخ ، ثم ما رأيك فى « برسكا » وقد أقبلت لتدرك صاحبها فهى تفلسف مع مؤدبها ثم تفلسف مع حبيبها المحتضر ، ثم تنتهى بهما الفلسفة إلى أنهما قد قهرا الزمن ثم تنتهى بهما الحقيقة إلى أن الزمان قد قهرهما ، فقد مات « ميشلينيا » ولكن صاحبته تفلسف أمام الموت مع مؤدبها « غلياس » .

كلا . هذا ممتع جدًّا فى القراءة ولكنه ممل جدًّا فى التمثيل ولابد من اختصار هذا الفصل ، بل لابد من أن يكتب هذا الفصل للملعب كتابة جديدة ويبقى كما هو للقراء . وإذا استمع الأستاذ توفيق الحكيم لنصحى فإنى أقترح عليه أن يتخذ من هذا الفصل الرابع منظرًا يسيرا يرى فيه أهل الكهف وقد عادوا إلى كهفهم وقد أدركهم الموت فاستسلموا له فى حوار قصير يسير ، وأدركت آخرهم بريسكا فأكبت عليه ، ثم يدركهم جميعا أهل المدينة ليقيموا معبدهم على الكهف وفى أثناء ذلك تسمع نغمات موسيقية بعيدة ملائمة .

ومهما يكن من شىء فإن من الحق أن تهنئ الفرقة بما ظفرت به من فوز أمس ، وأن نؤكد أنها قد ابتدأت أحسن ابتداء ، وأن كل شىء يدعو إلى أن ننتظر منها إحياء التمثيل العربى كأحسن مما نحب

أن يكون . فأما الأستاذ توفيق الحكيم فإن رأيى فى قصته أظهر وأشهر من أن احتاج إلى إعادة القول فيه . وإذا كنت قد هنأته منذ حين بتوفيقه الأدنى العظيم فإنى أهنئه اليوم بأن قصته قد قهرت الملعب كما قهرت النظارة .

وهل أنا فى حاجة إلى أن أهنئ مدير الفرقة الأستاذ مطران . كلا . إنه أشجع من أن يحتاج إلى تشجيع ، وأبرع من أن يحتاج إلى تقريظ ، وأن جهوده أعظم من أن يهنأ صاحبها بما قدر لها من توفيق .

وكم أحب أن يسمع جمهور النظارة لى مرة ولاسيما كبار النظارة والذين يمتازون منهم بالمنصب والجاه ويستبيحون من أجل ذلك لأنفسهم ما لا يستبيحه غيرهم من الناس .فإنى أحب أن أقول لهؤلاء السادة إن لشهود الملاعب آدابا أحقها بالعناية والرعاية : الصمت والإصغاء ، فكيف إذا خرج النظارة عن الصمت والإصغاء إلى إلقاء الجمل التى لا ينبغى أن تلقى فى الجماعات ، وقد سمعت أمس من هذه الجمل ما أستحى أن أسطره ، وإن لم يستح أصحابه من أن يقولوه .

١٦

وزير يحطم أنفه

نبأ أذاعته الصحف صباح السبت ومساءه ، وأذاعه الراديو فيما بين ذلك . فقرأه الناس وسمعوه ، وأكبر الظن أنهم أسفوا له ، كما يأسفون لكل نبأ يدل على أن أذى قد أصاب بعض الناس ولكنهم لم يكادوا يفكرون فى هذا النبأ قليلاً ويتحدثون فيه حين التقوا بعد الإفطار حتى ظهرت بينهم الفرقة وشجر بينهم الخلاف ، فسلك أنصار الجديد سبيلاً ، وسلك أنصار القديم سبيلا . وكان حوار أدبى بين أولئك وهؤلاء فى غير مجلس من مجالس السمر التى يلتقى فيها أصحاب الأدب والفن ، فدل ذلك فيما يظهر على أن الأدباء وأصحاب الفن مفلسون فى هذه الأيام لا يجدون موضوعا يلهيهم برغم كثرة الموضوعات ولا معنى يجيلون فيه الحديث برغم كثرة المعانى التى يجول فيها الأحاديث ، ودل هذا على أن الأدباء وأصحاب الفن مهما تكبر عقولهم وقلوبهم ونفوسهم فهم يلتمسون كبار المعانى من صغار الأحداث ، ودل هذا آخر الأمر على أن اجتماع الكلمة واتحاد الرأى

بين الساسة والقادة والزعماء لا يستلزم اجتماع الكلمة واتحاد الرأى بين الأدباء وأصحاب الفن حين يختلفون حول الجديد والقديم .

وما أظنك تسألنى عن هذا النبأ الذى قرأه الناس وسمعوه وتحدثوا فيه وانقسم حوله الأدباء شيئا من الانقسام . فأنت قد عرفته من غير شك فقد خفق البرق من سويسرا إلى أطراف الأرض أن وزيرًا عظيما من وزراء دولة عظيمة قد تعرض لبعض الشر فحطم أنفه ، وهذا النبأ اليسير مثير للأسف من غير شك ، فهذا الوزير إنسان قد أصابه أذى فى أنفه ، فهو خليق بشىء من العطف والإشفاق . ولكن الوزير نفسه أنف لدولته إن صح أن السياسة الخارجية هى أنف السياسة كلها لأنها أظهر أنواع السياسة والأنف أظهر أعضاء الوجه كما قال القدماء حين فسروا قول الشاعر القديم فى مدح بنى أنف الناقة :

قوم هم الأنف والأذناب دونهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

وفى تفسير قول بشار :

ألا أيها السائلى جاهدا ليعرفنى أنا أنف الكرم

ومادام بشار قد جعل للكرم أنفا فليس ما يمنع أن يجعل الأدباء المحدثون للسياسة أنفا ، وأن يكون هذا الأنف هو السياسة الخارجية لأنها أظهر ما فى السياسة كما قلت آنفا ، وإذن فما أصاب أنف الوزير من الأذى قد أصاب أنف السياسة نفسها . وهنا ظهر الخلاف بين الأدباء وأصحاب الفن فى أسمارهم وأحاديثهم ، فأما أنصار القديم

فأساءوا الظن وأخذوا يلتمسون أسباب التأويل والتعليل ، وقال بعضهم بل قالوا جميعا (لأمر ما جدع قصير أنفه) .

ثم أخذوا يؤكدون أن الوزير قد آذى نفسه وحطم أنفه عمدًا لكيد يكاد وأمر يراد . وأخذ بعضهم يضرع إلى الله فى أن يجنب مصر هذا الكبد ويعصمها من شر هذا الأمر الذى دبر بليل وينشد قول المتلمس :

فمن طلب الأوتار ما حز أنفه   قصير وخاض الموت بالسيف بيهس

وما دامت الخصومة قد كانت بين مصر وبلد هذا الوزير وأنزل الله نصره على مصر فى الخطوات الأولى ، فمن يدرى لعل الوزير يدبر بجدع الأنف إفسادًا لهذا النصر ، وأما أنصار الجديد فقد استقبلوا هذا الكلام هازئين به ساخرين ، وقالوا لأصحابهم : تفكير قديم يفسد الرأى ويثبط الهمم ويفل العزائم ، ولو عرفتم أدب الغرب وسلكتم مسالك الغربيين لقلتم إن انتصار مصر هو الذى آذى أنف الوزير ، فقد كان يريد أن يحول بينها وبين ما تريد فحالت هى بينه وبين ما أراد ، اصطدم بها فانحطم أنفه كما يقول الفرنسيون ، قالوا وأكبر الظن أنه سيتجنب الاصطدام بها منذ الآن إيثارًا للعافية وضنًا ببقية وجهه على الأذى .

ومضى أولئك وهؤلاء فى حوار طويل عقيم قطعته عليهم حين صرفتهم إلى الحديث فى أمرين : الأول أن التندر على ما يصيب الناس

من الأذى لا يليق بكرام الرجال ، وأنهم خليقون أن يتمنوا للوزير وإن كان لهم خصمًا شفاء عاجلاً وبرءًا سريعًا .

والثانى أن كثيرا من الناس يتعرضون فى كل يوم لما تعرض له الوزير فيصيبهم الأذى فى أنوفهم ورءوسهم وفى غير أنوفهم ورءوسهم فلا تخفق بذلك أسلاك البرق ولا تضطرب لذلك طبقات الأثير .

فأى الناس أسعد حظًا : الرجل الذى يؤذى أنفه فتضطرب له الأرض والسماء أم الرجل الذى يؤذى أنفه فلا تضطرب له إلا قلوب الذين يحبونه ويشفقون عليه .

ولم أكد أصل من حديثى إلى هذا الموضع حتى ائتلف المختلفون واتفق المختصمون فأعرضوا عن أنف الوزير وأنف السياسة وأنف الكرم وأنف الناقة ، والتفتوا إلىَّ يلومونني لأنى افسدت عليهم حوارا جميلاً .

١٧

من أسعد الناس وأشقاهم ؟

كتاب يقع في أكثر من أربعمائة صفحة من القطع الكبير كما يقولون وصل إليَّ منذ أيام قليلة فلم أكد أنظر فيه حتى أحسست شيئا كثيرًا من الإعجاب بمؤلفه وناشره ومهديه إلى .

والغريب أنى لا أعرف مؤلفه ولم أسمع به قبل أن يصل إليَّ هذا الكتاب ، وإنى لا أعرف ناشره إلا كما يعرفه أى إنسان ، له حظ من ثقافة ومشاركة فى قراءة الصحف ، كما أنى لا أعرف من أهداه إليَّ إلا ظنًّا .

وقد كتب هذا الكتاب الضخم الذى سنرى بعد حين أنه قيم ممتع بلغة فرنسية رائعة ، فإذا سألتنى عن مؤلف الكتاب وناشره فسيأخذك بعض ما أخذنى من الدهش والإعجاب ، فمؤلف الكتاب هو مدير المطبوعات فى مدينة بلغراد عاصمة يوجوسلافيا ، وناشر الكتاب هو إدارة المطبوعات فى وزارة الخارجية بيوجوسلافيا والذى تفضل بإهداء الكتاب إلى كما تفضل بإهدائه فى أكبر الظن إلى كثير من المصريين

المثقفين وإلى الصحف ، هو مفوضية يوجوسلافيا فى القاهرة . وأقول فى أكبر الظن لأن من عرض علىَّ الكتاب قد فض غلافه وأضاعه دون أن ينظر فيه .

وأول ما يخطر لك بعد هذا كله هو أن هذا الكتاب لا يعدو أن يكون نشرة ضخمة من هذه النشرات التى يقصد بها إلى نشر الدعوة لبلد من البلاد وهو على ذلك خليق بالإعجاب والثناء ، فقد يخيل إلىَّ أن من أهم ما يجب على حكومة من الحكومات وعلى إدارة المطبوعات فيها أن تعنى بنشر الدعوة للبلد الذى تحكمه وتدبر أموره ، ولكن الكتاب بعيد كل البعد عن أن يكون نشرة يقصد بها إلى مجرد الاذاعة والدعاية إنما هو تعريف دقيق مفصل للأجانب بهذه الدولة الناشئة الجديدة التى تحرص على أن يعرفها الناس معرفة حسنة صادقة صحيحة فهى تؤلف لهم فى ذلك كتابا وتنشره وتذيعه فيهم وترسله إلى المعروفين منهم هدية لاتقتضى لها ثمنا .

وقد نظرت فى هذا الكتاب نظرة سريعة وقرأت بعض فصوله لا كلها فلم أزدد به إلا إعجابًا ، ولم أزدد له إلا حبًّا ، ومن المحقق أنى سأمضى فى قراءته إن شاء الله حتى أتمه لأنه كتاب علمى يسير يجد قارئه فيه ما يلذ وما يمتع وما يفتح أبوابًا كثيرة إلى معرفة نافعة متنوعة ، فأنت تجد فى هذا الكتاب تاريخًا مفصلاً تفصيلاً معتدلاً للشعب اليوجوسلافى أو للشعوب اليوجوسلافية منذ أخذ يهاجر من

مواطنه القديمة فى أوائل العصر المسيحى إلى أن استقر فى موطنه الذى يقيم فيه ، ثم تاريخ ما أصاب هذا الشعب أو هذه الشعوب من ألوان المحن ، وما اختلف عليه من الأطوار السياسية وغير السياسية حتى انتهى إلى القرن الماضى ، ثم تجد فيه تاريخا دقيقا للنهضة السياسية التى دفعت هذا الشعب إلى جهاد طويل عسير فيه آلام ومحن ورزايا ، ولكنه على هذا كله ولهذا كله خصب منتج لأنه انتهى إلى وجود الصرب دولة مستقلة ثم إلى وجود الدولة العظيمة الجديدة الفتية دولة يوجوسلافيا[1] .

وأنت تجد فى هذا الكتاب وصفا جغرافيا علميا وعمليا فى الوقت نفسه لرقعة الأرض التى يسكنها هذا الشعب . ثم أنت تجد وصفا دقيقًا للعناصر التى يتكون منها هذا الشعب سواء فى ذلك العناصر الوطنية والعناصر الأجنبية التى استقرت فى الوطن اليوجوسلافى وتجنست بجنسيته ، ثم أنت تجد فى هذا الكتاب تصويرًا دقيقا مفصلا لحياة هذا الشعب الحديث على اختلاف ألوانها فنظمه السياسية وأحواله الاجتماعية وشئونه الدينية والاقتصادية كلها مبسوطة فى هذا الكتاب أحسن بسط وأوضحه وأجلاه . وأنت لا تتم قراءة الكتاب فى أكبر

---

(١) ولأن هذه الدولة كانت خليطا غير متجانس فقد تفككت وانفصلت عنها البوسنة والهرسك بعد حرب أهلية دامية .

الظن حتى تخرج بعلم جديد صحيح بشئون دولة من الدول الأوروبية الناشئة ، التى جاهدت فى سبيل الاستقلال حتى كسبته وجاهدت فى سبيل الرقى حتى انتهت منه إلى حظ عظيم ، وإذا أنت تحزن لأنك تتمنى لو أن كتابا كهذا يوضع عن مصر ينشئه مدير المطبوعات وتنشره إدارة المطبوعات ويذاع فى أقطار الأرض ويرسل هدية إلى المثقفين من أهل الأرض على اختلاف الأمم والشعوب ، على أنك تضطر إلى التفكير فى مصر وشئون مصر كلما خطوت فى هذا الكتاب خطوة قريبة أو بعيدة ، ولست أخفى عليك أنى أطلت التفكير فى مصر حين قرأت أحاديث هذا الكتاب عن الأقليات التى تقيم فى يوجوسلافيا . ففيها أقليات ألمانية ومجرية وألبانية وتركية وإيطالية وكثير من هذه الأقليات ضخم لابأس به ، وهى أقليات فى الجنس واللغة والدين ، وهى حريصة على جنسياتها ولغاتها ودياناتها .

وقد ضمنت لها المعاهدات أولا والقوانين ثانيا حريتها الكاملة فى هذا كله ، فلكل واحدة من هذه الأقليات مدارسها التى يكون التعليم فيها بلغتها ، ولكل واحدة من هذه الأقليات كنائسها ومساجدها ، ثم لكل واحدة من هذه الأقليات كل ما تحتاج إليه من الضمانات لحماية حقوقها على اختلافها ، ثم لكل واحدة من هذه الأقليات صحفها اليومية والأسبوعية والشهرية والدورية ، فإذا فكرت فيما ينشئه وجود هذه الأقليات وما ينبغى من احترام حقوقها المختلفة المتباينة

من المصاعب والمشكلات لهذه الدولة الناشئة ، وإذا فكرت فى أن هذه الدولة تواجه هذه المصاعب والمشكلات موفقة وتحلها موفقة وتستطيع برغمها أن تخطو خطوات بعيدة إلى الرقى والعظمة ، أقول إذا فكرت فى هذا كله ثم فى حياتنا نحن المصرية الهادئة اليسيرة التى لا تعقدها الأقليات ولا لغاتها ولا مدارسها ، ولا صحفها ، ولامطالبها التى لا تنقضى عرفت أننا من أسعد الناس وأشقاهم فى وقت واحد ، من أسعد الناس لأن الله قد رفع عنا كثيرًا جدًّا من أثقال الأمم التى تجاهد موفقة فى الحياة ، ومن أشقى الناس لأننا لا نستفيد من هذا التخفيف الذى يسره الله لنا تيسيرًا ، ومن هذه الظروف السعيدة التى هيأها الله لنا لنسعى إلى الرقى مسرعين ، لا نستفيد من هذا كله وإنما نخلق لأنفسنا المصاعب والمشكلات ، أو يخلقها لنا غيرنا من لا شىء ، وإذا نحن نتعثر والطريق أمامنا ممهدة ، وإذا نحن نبطئ وكل شىء يدعونا إلى الإسراع نبطئ وقد خفف الله عنا ، ويسرع غيرنا وقد أثقلته المصاعب والمشكلات .

كل شىء فى هذا الكتاب يثير اللذة والمتاع ويبعث العظة والاعتبار ويدعو إلى الروية والتفكير .

فللموظف الذى ألفه وللحكومة التى نشرته وللمفوضية التى أهدته إلىَّ أجمل الشكر وأحسن الثناء ، ولعل الله يلهم موظفا من موظفينا أن يؤلف مثله ، ويلهم وزارة من وزارتنا أن تنشره ، ويلهم مفوضياتنا وقنصلياتنا أن تذيعه فى أقطار الأمم وتهديه إلى المثقفين .

١٨

أمـران

وكنا نسمع أيام الصبا كبار الطلاب فى الأزهر الشريف يتندرون بجملة كانوا يضيفونها إلى شيخ من شيوخهم ، وكانوا يزعمون أن الشيخ إنما كان يردد هذه الجملة تعريضا بالأستاذ الإمام رحمه الله فكان يقول فى دروسه متغنيا ، لأنه كان يتغنى فى إلقاء الدرس : ومن ذهب إلى فرانسا فهو كافر ، أو على الأقل زنديق ، وكان الشيخ رحمه الله فيما روى لنا كبار الطلاب يعرب اسم فرنسا فيمد ألفًا طويلة بعد الراء وأخرى ليست أقصر منها بعد السين ويكسر النون بينهما كسرًا ، وكان الطلاب يتساءلون ويحاور بعضهم بعضًا فى فرق ما بين الكافر والزنديق ، أيهما أشد إمعانا فى معصية الله واستحقاقا لغضبه ، وكانوا ينتهون فى أكثر الأحيان إلى أن كلمة الزنديق مرادفة لكلمة الفاسق ، وإلى أن الزندقة أخف من الكفر ، وكانوا يجهلون فى أكبر الظن أن من خلفاء المسلمين من كان يقتل الزنادقة تقتيلاً .

كان الذهاب إلى فرانسا بمد الألفين وكسر النون أو بقصر الألفين وتسكين النون كفرًا أو فسوقًا فى أوائل هذا القرن لأن الأستاذ الإمام كان يذهب إلى فرنسا ؛ وكان السفر إلى أوروبا على كل حال شيئا لا يبسم له الأزهريون ولا يظهرون الرضى عنه والتشجيع عليه وإن

احتملوه احتمالاً ، فأما الآن فقد تغير كل شىء وتغير كل شىء إلى الخير ، فأصبح الأزهر لا يكره السفر إلى اوروبا ولا يصد عنه ، وإنما يسعى إليه ويرغب فيه ويرصد له المال والمال الضخم الكثير ، والغريب أن الأزهريين كانوا أول من سافروا إلى أوروبا وطلبوا فيها العلم الحديث حين أرسل محمد على الكبير بعوثه العلمية ولكن لم يمنع هذا أهل الأزهر من إنكار ماضيهم والتنكر فى وقت ما ممن كانوا يسعون إلى أوروبا يطلبون فيها العلم القديم أو الحديث ، وقد كان الأزهر مخطئا من غير شك وهو يرجع عن خطئه ، فيجب أن نحمد له هذا الرجوع عن الخطأ لأن الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل ، والله يعصم الأزهر أن يتبين الباطل ، والله يعصم الأزهر أن يتبين الباطل ، ثم يمضى فيه أو يصر عليه . وفى الأزهر قدوة للمسلمين فهو يضرب لهم أحسن الأمثال الآن حين يرسل البعوث إلى أوروبا سواء قرئت أوروبا بفتح الهمزة بعدها واو ساكنة أو بضم الهمزة بعدها واو ممدودة وقد كان يكره ذلك وينفر منه ، والمهم فى هذا أن الحضارة الأوربية الحديثة قد ظفرت بشرف عظيم ما أظن أنها كانت تحلم به ، فقد اعترف الأزهر بها اعترافًا وسجل الحاجة إليها تسجيلاً . وليس قليلا أن تعترف جامعة المعز لدين الله باكسفورد وكمبردج والسوربون .

من الخير إذن فى غير شك أن يرسل بعوثا علمية إلى أوربا ولا ينبغى للمصريين أن يصدوه عن ذلك أو يزهدوه فيه ولكن يجب على المصريين وعلى المصريين الذين لهم علم أوروبا وجامعاتها أن يقدموا للأزهر نصيحتهم خالصة فى أمر هذه البعوث ، وقد استخرت الله عز وجل

وانتهيت إلى أن أقدم هذه النصيحة لا أرجو عليها جزاء ولا شكورًا ، ولا أستبعد أن ألام فيها أشد اللوم أو أعاتب فيها أشد العتاب ، وقد صدق رسول الله ﷺ فإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، وأنا أريد أن أنصح للأزهر فى أمرين : فأما أولهما فهو إرسال البعوث نفسه ، ذلك أن مصر قد أرسلت البعوث وأكثرت من ذلك وعرفت من التجربة أن هذه البعوث يجب أن تهيأ فى مصر لدرس العلم العالى الحديث قبل أن ترسل إلى أوروبا حتى لا يضيع ما تنفق من وقت وما ينفق عليها من مال . وكانت مصر ترسل البعوث من حملة الشهادة الثانوية ثم أخذت ترسلهم من حملة الليسانس وما يشبهها بعد أن أنشئت الجامعة ثم أخذت ترسلهم من حملة الماجتسير وهى درجة أرقى من الليسانس .فإذا أراد الأزهر أن يرسل بعوثا إلى أوروبا فليرسل بعوثه أول الأمر إلى الجامعة المصرية ليتثقفوا فيها بالثقافة الحديثة ثم ليختر من بين هذه البعوث من تظهر كفايته وينبه شأنه وتنهض الحجة على حسن استعداده للاستفادة من هذا السفر البعيد . وإذا كان عند الأزهر اثنان أو ثلاثة أو أربعة قد امتازوا بكفاية نادرة واستعداد باهر فلا بأس بإرسالهم منذ الآن على أن ترسم لهم برامج ومناهج تلائم حاجات الأزهر الماسه وضروراته الملحة ، فأما أن يرسل الأزهر منذ الآن اثنى عشر طالبًا فهذا كثير وأنا أخشى مخلصًا أن يضيع الأزهر وأبناؤه كثيرًا من الوقت والجهد والمال فى غير غناء . والعلم الحديث يدرس فى الجامعة المصرية كما يدرس فى الجامعات الأوروبية والاستفادة منه هنا أيسر للأزهريين وأهون عليهم ، وما أظن أن الأزهر

يحب أوروبا لنفسها وإنما هو يحبها للعلم ، فليطلب العلم الحديث فى مصر حتى إذا استوعب الأزهر ما فى مصر من هذا العلم أرسل بعوثه تستزيد منه فى لندرة[1] وبرلين وباريس .

هذا أحد الأمرين ، والأمر الآخر أمر المدن التى يرسل إليها هؤلاء الطلاب ، فالأزهر يرسل اثنين إلى باريس واثنين إلى برلين وثمانية إلى انجلترا ، وكنا نظن أن الأزهر سيقسم بعوثه ثلاثًا فيرسل منها إلى إنجلترا الثلث – والثلث كثير – فإذا هو يقسم الثلث بين فرنسا وألمانيا ويؤثر إنجلترا بالثلثين . وأؤكد للأزهر أن حاجته إلى البعوث التى ترسل إلى فرنسا وألمانيا وإيطاليا أشد جدا من حاجته إلى البعوث التى ترسل إلى إنجلترا ، ففروع الفلسفة على اختلافها وعلوم الدين على تنوعها وعلوم اللغات السامية على تشعبها تزهر فى فرنسا وألمانيا أكثر مما تزهر فى بلاد الإنجليز ، والأزهر ينسى إيطاليا فيما يظهر ، ومع ذلك فقد يستفيد الأزهر كثيرًا إذا أرسل بعض طلابه إلى روما ، ولو لم يكن فى روما إلا أنها مستقر البابا وعاصمة الكاثوليكية وإلا أن فيها أو قريبا منها الفاتيكان ومكتبة الفاتيكان وقسمها العربى العظيم ونظامها الفنى البديع لكانت خليقة أن يرسل إليها الأزهر بعض طلابه . وإذا كان الأزهر حريصًا على أن يرسل بعثه الضخم إلى أوربا منذ الآن

(١) لندن

فإنى أنصح له أن يقسم هذا البعث أرباعا بين لندرة وباريس وروما وبرلين . ولو كنت مكان الشيخ الأكبر لما زدت بالبعثة الأولى على أربعة ، ولوزعتهم على هذه المدن الأربعة ولاستعنت بما عندى من المال على إرسال عشرات من الطلاب إلى كليتى الآداب والحقوق فى الجامعة المصرية .

١٩

حتى لا يحتكر أحد العقل المصرى

ولم ينقض حديث البعوث التى يريد الأزهر الشريف أن يرسلها إلى إنجلترا وفرنسا وألمانيا بعد وما أظن أنه سينقضى فى سرعة ويسر ، فالأمر ليس من السهولة بحيث ظن الأزهر ، والأمر فى حاجة إلى أن يطول التفكير فيه وإلى أن يدرس درسًا عميقًا دقيقًا ، وليس من المسائل التى يقضى فيها بجرة قلم ، أو بجلستين من جلسات المجلس الأعلى للأزهر أو بتشاور يسير قصير بين الأزهر ووزارة المعارف أو أى وزارة اخرى من الوزارات . وحسبك أن تلاحظ أن إرسال هذه البعوث إنما هو الخطوة الحازمة الحاسمة التى يخطوها الأزهر ليتصل اتصالاً مباشرًا متينًا بالحضارة الأوربية ، ولينقل هذه الحضارة نقلاً مباشرًا من وراء البحر فيقرها فى معاهده وكلياته ، واذا كان غير الأزهر من المعاهد قد اندفع إلى هذا فى غير مهل ولا أناة فإن الأزهر خليق أن يتمهل ويستأنى لأن طبيعته تقتضى ذلك وتفرضه عليه فرضًا ، وأعوذ بالله أن أثبط همة الأزهر أو أصده عن إيفاد البعوث أو أزهده فى أن يأخذ من الجديد الأوربى بحظ يلائم حاجته وواجبه وأنا الذى دعا إلى ذلك

منذ أعوام طوال ، وأنا الذى مازال يدعو إلى ذلك ، وقد لقى فيه غير قليل من الأذى ، ولقى هذا الأذى من الأزهريين أنفسهم ، لأنهم كانوا يسيئون به الظن ويرسلون إليه التهم فى غير حساب . أعوذ بالله أن أرد الأزهر عن إيفاد البعوث إلى أوروبا ، بل أنا سعيد كل السعادة لأن انتهاء الأزهر إلى هذه النتيجة إنما هو نوع من الفوز الظاهر المؤزر للدعوة التى ألححت فيها وبذلت فى سبيلها جهودًا متصلة ثقالاً ، ولكن صرف الأزهر عن إيفاد البعوث شيء والنصح له بالروية والأناة شيء آخر ، فليرسل الأزهر بعوثه إلى أوروبا ولكن عن بحث ودرس وعن رؤية وبصيرة وعن بما يأتى وما يدع . وكل شيء يدل على أن الأزهر لم ينضج مسألة البعوث هذه إنضاجًا حسنًا وكأنه يتعجل الأمر وينتهز الفرص ، ويريد أن يضع المستقبل القريب أو المستقبل البعيد أمام أمر واقع ، فمم يخاف الأزهر وممن يخاف ، إن الوزارات المصرية على اختلاف ألوانها لم تعود الأزهر تخذيلا ولا تثبيطا ولم تبخل عليه بما احتاج إليه من مال ، ولم تحرص على أن تحول بينه وبين ما ينبغى له من سعى إلى الرقى ؟ بل من سعى سريع إلى الرقى ،فمم يخاف الأزهر وممن يخاف . وما باله يقذف بعوته قذفًا إلى أوروبا دون أن يستبين الأمر كما ينبغى أن يستبينه فيما يليق بمعهد دينى عظيم من حكمة ورشاد ، هؤلاء جماعة من الذين كان الأزهر يريد أن يرسلهم إلى أوروبا يعتذرون ويؤثرون البقاء لأن المرتبات التى يريد الأزهر أن يؤديها إليهم لا تنهض بحاجاتهم هناك وحاجات أهلهم

وأبنائهم هنا ، وهم يحدثوننا من طريق « الأهرام » بأن أصغرهم سنًّا قد جاوز الأربعين وبأن لهم أسرًا فيها الأزواج والأبناء والبنات . فهل قدر الأزهر قبل اختياره لهؤلاء المبعوثين أن استئناف الدرس بعد سن الأربعين ليس من الأشياء اليسيرة الهينة ، وأى استئناف للدرس ؟ استئناف له فى لغة أجنبية مهما يكن حظ الطالب منها قبل سفره فهو ضئيل بالقياس إلى ما سيحتاج إليه ليفهم الدروس التى ستلقى فى الجامعات واستئناف له فى بلاد تخالف بلادنا المصرية أشد الخلاف فى الجو والبيئة والإقليم ، فهل قدر الأزهر أنه يكلف هؤلاء الشيوخ ما لا ينبغى أن يتكلف الشيوخ . واستئناف له فى جامعات تخالف الأزهر أشد الخلاف ، فى نظمها وعاداتها وتقاليدها ، فهل قدر الأزهر أن تكليف الشيوخ شيئا كهذا قد يشق عليهم ويطلب إليهم أكثر مما يستطيعون ، هؤلاء قوم تعودوا الجبة والقفطان والعمامة منذ الصبا حتى جاوزوا الأربعين ، ويريد الأزهر أن يخرجوا من الجبة والقفطان ليدخلوا فى الثياب الأوروبية بعد الأربعين . وأن يضعوا العمامة ويتخذوا القلنسوة بعد الأربعين ، فهل قدر الأزهر أنه يكلفهم شططا ، وكل هذه أمور هينة يسيرة تستطيع الإرادة القوية أن تقهرها وتتغلب عليها ، ولكن هناك أمورًا أخرى ليست هينة ولا يسيرة ومصاعب أخرى لا يذللها إلا المتفوقون ، فعقول هؤلاء الشيوخ قد تم تكوينها ومضت فى طريقها الأزهرية الخالصة حتى جاوز أصحابها الأربعين ، فهل يظن الأزهر أن هذه العقول ستعود إذا عبر أصحابها

البحر مرنة ،لدنة رخصة ، تتشكل فى غير عنف بما يعرض لها من الأشكال التى ستفرضها الحياة الأوربية والجامعات الأوربية والتعليم الأوروبى .

من الذى زعم للأزهر إن هذا معقول ؟ من الذى هون على الأزهر هذا الأمر العسير ودفعه إلى هذه المغامرة التى لا تؤمن عواقبها ، إن وزارة المعارف تحتاط حين ترسل بعوثها إلى أوروبا ، تحتاط لصحة الطلاب وتحتاط لعقولهم وهى تهيئهم للسفر إلى أوروبا منذ التعليم الابتدائى وتجاربها مع ذلك ليست مرضية كل الرضى ، إن وزارة المعارف لا ترسل إلى أوروبا لطلب العلم والاختلاف إلى الجامعات ونيل الدرجات الجامعية من جاوز الأربعين ، ومع ذلك فلو فعلت ذلك وزارة المعارف لما تعرضت للوم شديد لأنها كما قلت تهيىء طلابها للحياة الأوروبية تهيئة حسنة ، وتكون عقولهم فى مدارسها ومعاهدها تكوينا حديثا ، فطلابها ليسوا غرباء حين يصلون إلى الجامعات الأوروبية ، لا يحسون من الوحشة الخلقية والعقلية ما سيحسه هؤلاء الشيوخ الأزهريون . ألم يفكر الأزهر فى هذا كله ! ألم يجتهد الأزهر فى أن يتبين عواقب هذا كله ! ألم يستشر الأزهر فى هذا كله من لهم بالحياة الأوربية علم صحيح . ثم ما عسى أن تكون البرامج الدراسية التى وضعها الأزهر لهؤلاء الشيوخ وأخذهم بتحقيقها فى الجامعات الأوربية . وما عسى أن تكون الدرجات العلمية التى يطلبها

الأزهر إلى هؤلاء الشيوخ إذا سافروا إلى أوربا واستطاعوا أن يلتحقوا بالجامعات .

إن هذا كله لا يقضى فيه بهذه السرعة وإنما يدبر تدبيرا ويسعى فيه مع أشد المهل وأعظم الأناة ، وقد رأينا أن الأزهر يريد أن يرسل ثمانية إلى إنجلترا واثنين إلى فرنسا واثنين إلى المانيا .وقد لاحظنا أن في هذا التوزيع شيئًا من الغرابة ، وأنه بعيد عن ملاءمة المصلحة والحاجة وأن الأزهر قد أهمل إيطاليا فهل يؤذن لنا فى أن نلفت الأزهر إلى أنه معهد شرقى إسلامى قبل كل شيء وأن واجبه الأول مهما يكن حرصه على التجديد والتطور إنما هو أن يظل معهدًا للمحافظة المعقولة التى تعصمه من الاندفاع والتطرف وتحول بينه وبين الإسراف فى التجديد ، وإذن فمن الخير له ومن الحق عليه إذا التمس الثقافات الأوروبية أن يوازن بينها موازنة صحيحة ولا يميل بالميزان إلى هذه الثقافة أو تلك ، فمن الخطر حقا أن تغلب ثقافة أوروبية بعينها فى معهد كالأزهر .

وإنما الواجب كل الواجب أن تتوازن الثقافات الأوروبية حتى تستطيع الثقافة العربية الإسلامية أن تسيغها جميعًا وأن تحتفظ بشخصيتها ، إنا نضن بالأزهر كل الضن أن يلقى بنفسه فى أحضان الثقافة اللاتينية أو السكسونية ، ونلح أشد الإلحاح فى أن يظل عربيًا وعربيًّا خالصًا يأخذ من الثقافات الأوروبية المختلفة بمقادير متناسبة متناسقة ، لا يطغى بعضها على بعض ، فإذا لم يكن للأزهر بد من أن يتعجل إرسال البعوث إلى أوروبا غير حافل بما نقدم إليه من نصح

بالمهل والأناة ، فليعد النظر فى توزيع بعوثه على الأقطار الأوروبية وليحذر الحذر كله أن يلتهم بلد من البلاد الأوروبية بعوثه كلها أو أكثرها . ولينظر إلى الجامعة فقد يحسن الاقتداء بالجامعة فى بعض الأشياء . إنها لا ترسل بعوثها إلى بلد بعينه ، وإنما ترسلهم إلى البلاد الراقية فى أوروبا ، فمنهم من يذهب إلى إنجلترا ومنهم من يذهب إلى فرنسا ، ومنهم من يذهب إلى ألمانيا ، ومنم يذهب إلى إيطاليا .والأصل فى هذا التنويع ما قدمته من أن الجامعة حريصة كل الحرص على أن تأخذ بأطراف مختلفة من الثقافات المختلفة لأنها ترى أن هذا أحفظ للشخصية المصرية الخالصة وأجدر أن يفتح للمصريين أبوابًا متمايزة من العلم ، وأجدر بعد هذا كله أن يعصم العقل المصرى من أن يكون محتكرا لشعب أوروبى ما .

وأعود فأتمنى على الأزهر أن يصطنع المهل والأناة وأن يستأنف البحث فى أمر هذه البعوث فمازال فى الوقت فسحة بعد أن تقدم العام الدراسى ولا بأس بأن يسافر الطلاب في آخر الشتاء وأول الربيع ، ذلك أحفظ لصحتهم وأخلق أن يجنبهم آلام البرد الشديد الذى لم يتعودوه من قبل .

ثم أعود فأتمنى على الأزهر أن يفكر فى أن فى مصر جامعة مصرية تدرس فروع العلم الحديث على نحو ما تدرسه الجامعات الأوروبية . فليوجه إليها بعوثه وليجعل السفر إلى أوروبا مزية للنابهين المتفوقين .

٢٠

الأنــاة

إن صح هذا النبأ الذى تذيعه الصحف هذا المساء ، فقد آثر مجلس الوزراء أن يرجىء قانون الأزهر حتى يعرض على البرلمان ليقضى فيه ، وهذا الإرجاء خير من جميع وجوهه ، فهو يؤكد فى نفوس الناس أن الحياة النيابية جدٌّ لا لعب ، وأن إحياء الدستور ليس مزاحا ولا خداعا ، ثم هو يؤكد فى نفوس الناس أن مجلس الوزراء ليس شديد الحرص على أن يستمتع بالحقوق التى تخوله أن يقوم مقام البرلمان حتى ينعقد ، وأكبر الظن أنه لن يستمتع بهذه الحقوق إلا حين تقضى بذلك الضرورة القصوى ، ولعلها لا تقضى بذلك قبل أن يجتمع النواب والشيوخ .

ولست أكتب هذا لأتحدث فى السياسة ، وإنما أكتبه لأتحدث فى الأزهر ، وما أظن الأزهر وشؤونه من هذه السياسة التى لا يباح لنا أن نكتب فيها ، وفى إرجاء القانون الأزهرى إلى اجتماع البرلمان أخذ بالأحوط فليست مسألة التعليم الأزهرى هينة ولا يسيرة ، وإذا

كانت العجلة تكره فى شىء فهى أجدر أن تكره أشد الكره حين تمس أمور التعليم ، وقد مضى الأزهر على نظامه القائم حينا من الدهر وقد تقدم العام الدراسى فليس ما يمنع الأزهر أن يمضى على هذا النظام بقية العام ، حتى يقضى البرلمان فى أمره .

على أنى إنما أكتب هذا الحديث فى حقيقة الأمر لأتمنى على الأزهر أن يسير سيرة مجلس الوزراء فيستأنى ويصطنع المهل فى أمر البعوث كما استأنى مجلس الوزراء واصطنع المهل فى أمر القانون . ولست أريد أن يعرض الأزهر أمر البعوث على البرلمان وإنما أريد أن يعرض الأزهر أمر البعوث على نفسه ، مرة ومرة ، وأن يطيل النظر فيه والاستقصاء له ، وأن يسأل فيه أهل الذكر ، ويستشير فيه أهل العلم حتى لايندم حين لا يغنى الندم ولا يأسف حين لاينفعه الأسف قليلاً ولا كثيرًا ، وقد كنا نسمر أمس مع جماعة من الأصدقاء فعرضنا فيما عرضنا له لهذا المال الذى سينفقه الأزهر على هذه البعوث ورأينا أن الأزهر قد أرصد ثلاثة آلاف من الجنيهات فى هذا العام وسيرصد مثلها فى العام المقبل ، أو أكثر منها وسيزداد هذا المال عامًا فعامًا وأخذنا نتساءل أليس : من الحق على الأزهر أن يتدبر قبل أن يرسل هذا المال إلى أوروبا فلا يرسله إلا وهو مرجح ترجيحا كافيًا أنه لن ينفقه عبثًا ولن يضيعه فى غير نفع ، وقال قائل إن من هؤلاء المبعوثين من قد يحتاج إلى أن يبقى فى أوروبا عشرة أعوام ، وهو يسافر بعد أن جاوز

الأربعين فإذا عاد وقد جاوز الخمسين فلن يقضى أعوامًا حتى يحال إلى المعاش . والأزهر يعلم من غير شك أن هذه الأموال التى سترسل إلى أوروبا إنما هى الضرائب التى تجبى من الأغنياء والفقراء ، وحظ الفقراء وأوساط الناس منها أعظم من حظ الأغنياء ، والناس يتكلفون كثيرًا من الجهد والعنـاء ليؤدوا إلى الدولـة هذه الضـرائب فينبغى ألا تنفق إلا في وجوه النفع الذى لاشك فيـه ، والأزهر أجدر أن يلاحظ هذا وأن يحرص عليه أشد الحرص ، فالأزهر يعلم حق العلم ما يجب لبيت مال المسلمين من رعاية وعناية . ولا ينبغى أن يقول الأزهر إن من المصالح والوزارات ما يسرف فى أموال المسلمين ، فلا ينبغى أن يباح الإسراف لقوم ويحظر على قوم آخرين ، فنحن لا نبيح الإسراف لأحد ولكننا نحب فوق كل شىء إذا لم يكن للأزهـر بد من القدوة أن تكون قدوته صالحة لا تؤخذ بإسراف ولا تلام على تبذير . ولن يبخل المسلمون بأموالهم على الأزهر لينفقها فى التعليم المنتج فى مصر وفي أوروبا ، ولكنهم يحبون أن يطمئنوا إلى أنها تنفق فى وجهها وإلى أنها ستنتج للأزهر خيرًا محققًا ، وهذه العجلة التى يصطنعها الأزهر فى إيفاد البعوث دون أن ينضج برنامجها إنضاجًا ، ودون أن يأخذ – فى اختيار الأعضاء ، وتعيين البلاد التى يوفدون إليها – بالأحوط من الأمر ، خليقة أن تثير فى نفوس الناس شيئًا من الشك فيما سينتجه هذا المال من الثمرات بعد أن ينفق فى إنجلترا وفرنسا وألمانيا .

والناس ينتظرون ألا تكون وزارة المالية أقل حرصا منهم على هذه الأموال فوزير المالية يتشدد كل التشدد ويتحرج كل التحرج فى الإذن بالإنفاق حتى حينما تكون المنفعة ظاهرة مقطوعًا بها . فهل يريد وزير المالية أن يتشدد ويتحرج فى الإذن بفتح هذا الباب الذى لا ينبغى أن يفتح إلا على بصيرة ولا أن يدخل منه إلا عن ثقة ويقين ؟

والأزهر محتاج إلى الذين يدرسون فيه العلم الحديث مافى ذلك شك ولكنه إلى الآن قد استعان برجال المعاهد الأخرى على هذا الدرس وسيستعين بهم حتى تعود إليه بعوثه بعد أعوام طوال فليس على الأزهر بأس إذن من أن يؤجل بعوثه شهرين أو أشهرا حتى يتم الدرس والبحث ويحسن التتبع والاستقصاء . وللحكومة لجنة لا ترسل البعوث إلا عن رأيها وبعد موافقتها . فهل استشيرت هذه اللجنة فى أمر البعوث الأزهرية فوافقت على إيفادها ؟ أم هل يراد أن تخضع المعاهد والمصالح كلها لهذه اللجنة ويستثنى منها الأزهر وحده ؟ وكانت الجامعه حين أنشئت مستقلة بأمر بعوثها العلمية . ولكن تنظيم البعوث للدولة المصرية اقتضى أن تخضع بعوث الجامعة لهذه اللجنة كما تخضع لها بعوث المصالح والمعاهد الأخرى ، ومثلت الجامعة فى هذه اللجنة فأصبح مديرها عضوًا من أعضائها ، ولسنا نسوء وزارة المعارف ولا نتجنى عليها حين نقول إن الجامعة أعلم منها بشؤون البعوث فى أوربا لأنها أعلم منها بنظم التعليم فى الجامعات الأوربية ، والجامعة

مع ذلك لاتتحرج من أن تخضع بعوثها للجنة البعثات ، ولسنا نسوء الأزهر إن قلنا إنه لايعرف من نظم التعليم فى الجامعات الأوروبية شيئا كثيرًا وإن وزارة المعارف أعلم منه بهذه النظم ألف مرة ومرة فكيف يمكن مع هذا أن يستبد الأزهر ببعوثه على حين لاتستبد الجامعة ببعوثها .

إنا نلح أشد الإلحاح فى أن تخضع بعوث الأزهر للجنة البعثات على أن يصبح حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر عضوًا فيها كمدير الجامعة .

فى ذلك النفع كل النفع لأن الأزهر شديد الحاجة إلى مشورة اللجنة وإرشادها على حين ليست الجامعة فى حاجة إلى تلك المشورة وهذا الإرشاد .

وأخرى نريد أن نلفت إليها الأزهر ووزير المالية ولجنة البعثات ، وهى أن مصر قد قررت فى قوانينها ألا ترسل البعوث إلى أوروبا إلا إذا كلف أعضاؤها أن يحصلوا على درجات جامعية لا يمكن الحصول عليها فى مصر ، فهل يراد من بعوث الأزهر أن تحصل على درجات جامعية لا سبيل إلى تحصيلها فى مصر ، وما عسى أن تكون هذه الدرجات ، اللهم أشهد أنا نقدم إلى الأزهر وإلى الدولة التى تعينه بالمال نصحنا صادقين مخلصين .

وهذا النصح يقضى علينا بأن نلح أشد الالحاح فى ألا يتعجل الأزهر

إرسال البعوث قبل أن يتم الدرس والبحث والاستقصاء وفى أن لا يتوسع الأزهر فى هذه البعوث منذ الآن ، وإنما يقصرها على النابهين الممتازين ، وهم قليل ، ويعنى بتهيئة جماعة من علمائه أو طلابه فى كليات الجامعة منذ الآن . وفى ألا تسافر بعوث الأزهر إلى أوروبا قبل أن توافق على سفرها لجنة البعثات ، على أن يكون الأستاذ الأكبر عضوًا فيها .

وإنا لنرجو أن يقع هذا الكلام من الأزهر ووزارة المالية موقعًا حسنًا وأن تكون نتيجته الأولى الأناة بهذه البعوث حتى ينظم أمرها تنظيما .

٢١

هـــدية

أرجو أن تتيح الأيام والظروف لى فرصة أتحدث فيها مع شىء من التوسع عن هذا الكاتب الألمانى العظيم الذى أريد أن أتحدث اليوم عن كتاب من كتبه ترجم إلى العربية ، وهذا الكاتب هو « شيلر » وما أظن أنى فى حاجة إلى أن أعرف به قارئًا مثقفًا فهو أظهر وأشهر من أن يحتاج إلى تعريف ، وحسبك أن العالم المثقف كله يتحدث بآثاره البعيدة فى الحياة العقلية والأدبية للشعب الألمانى منذ أخذ ينشر شعره ونثره ، فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وحسبك أن العالم المثقف كله سيتحدث دائما بهذه الصلة الخصبة التى كانت بينه وبين الشاعر الألمانى العظيم « جوت » ، والتى تركت فى الأدب العالمى آثارًا خالدة يجدها فى هذه المجلة التى كانا يتعاونان على إنشائها ونجدها فى هذه الرسائل التى اتصلت بينهما دهرًا وترجمت إلى اللغات الحية كلها إلا اللغة العربية بالطبع واشتملت على ملاحظات أدبية وفنية قيمة خالدة لن يفرغ الناس من درسها وتدبرها واستخلاص الفلسفة العليا منها .

حسبك هذا وحسبك أن الألمانيين يرونه مؤثرًا جوهريا إن صح هذا التعبير فى أدبهم الحديث ، وفنهم الحديث ، وفلسفتهم الحديثة أيضا . وأنا لا أريد أن أظلمه بالتحدث عنه فى هذا الفصل القصير ، ولولا أنى أنفقت معه النهار أو أكثره لما عرضت له فى هذه الأحاديث ولكنى لا أجد بأسًا بأن انتقل بالقارئ ولو فى رمضان بين الأدب العربى القديم والأدب الأوربى الحديث والأزهر وغير الأزهر من الموضوعات فأنا لا أفهم أحاديث رمضان إلا على هذا النحو المتفرق الذى لاحظَ له من وحدة ولا من نظام .

وقد قضيت أكثر النهار اليوم مع هذا الكاتب الألمانى العظيم كما قلت . فكانت ساعات سعيدة حقًا تلك التى أنفقتها معه ، وشيلر من الأدباء القليلين الذين يجد المستمعون إليهم متاعًا راقيًا صافيا ممتازًا يصرفك عن كل شيء إلا عن الأدب الخالص والفن العالى . والغريب أنى كنت أستمع لحديثه الحلو ، وأستمتع بروحه العذب ، ونفسه الكريمة ، وحنانه الذى لاحد له ، وعقله الذى لايشبه قوته وحدته ، ونشاطه ، إلا مالزم جسمه من الضعف المتصل والمرض الملح ، والألم المقيم ، الغريب أنى كنت استمتع بهذا كله من طريق لغتنا العربية العزيزة . فكانت لذتى مضاعفة ولم أكن أعرف حدًّا لما كنت أجد من الرضى والابتهاج . وليس قليلاً لمن يحب اللغة العربية ، ويقف حياته عليها أن يقرأ فيها أثرًا من آثار شيلر كما قرأ فيها أثرًا أو أثرين

من آثار جوت . فالذى أتاح لى هذه النعمة أجمل الشكر وأحسن الثناء .

ولعل القراء يذكرون أنى قدمت إليهم أول هذا العام ترجمة عربية لأثر فرنسى خالد هو كتاب « أدولف » الذى وضعه « بنجامان كونستان » وترجمة إلى العربية صديقنا الدكتور حسن صادق . فأنا سعيد بأن أقدم إليهم فى آخر هذا العام أثرًا ألمانيا خالدًا وضعه شيلر وترجمه صديقنا الدكتور حسن صادق أيضا .

وهذا الأثر هو قصة الحب والدسيسة التى وضعها شيلر حوارًا تمثيليا على نحو ماوضع جوت قصة « فوست » ، وترجمها المترجم حوارًا تمثيليا أيضًا ولكنه رفق بقراء العربية فحولها بعض التحويل وأذاعها قصة مرسلة وليته لم يفعل ، فقد كنت أوثر أن يرفق بالمؤلف أكثر مما رفق بالقراء ، ولكن لنا عزاء عن هذا لأن الصورة التمثيلية قد نقلت أول الأمر إلى العربية ويقال إنها أرسلت إلى فرقة التمثيل . ومهما يكن أمر هذه القصة المرسلة التى أذيعت فى الناس منذ أيام ومهما يكن المترجم قد نقلها من الفرنسية لا من الألمانية فإن روح الكاتب العظيم قد ظهر فيها أوضح الظهور وأقواه .

فأنت لاتكاد تمضى فى قراءة الفصل الأول حتى يملك الكاتب عليك نفسك وحسك وعقلك معا ، وإذا أنت لا تستطيع فراق القصة

حتى تتمها ، فإن أكرهت على ذلك إكراها لم تنس الموضع الذى وقفت عنده حتى تعود إليه وتمضى فى قراءة القصة .

وأنت لاتجد فى الترجمة لفظًا نابيًا ولا كلمة قلقة ولا جملة غامضة ، ولا إشارة خفية ، وإنما هو ضوء جميل منذ أول القصة إلى آخرها حتى حين تتعقد الأمور وتصطدم العواطف وتنتهى إلى الكارثة التى تختم بها القصة ، ومصدر ذلك أن نفس الكاتب كانت مشرقة حقًّا وأن المترجم قد استطاع أن يحفظ هذا الإشراق فى الصورة الثالثة لهذه القصة ، مادامت قد وضعت بألمانية ،ثم نقلت منها إلى الفرنسية ثم نقلت من الفرنسية إلى لغة الضاد .

ولا تنتظر منى أن ألخص لك القصة فإنى إنما ألجأ إلى التلخيص حين يصعب على قراء العربية أن يقرءوا فأما والقصة مترجمة والحصول عليها يسير فإنى لا أكتب لألخص وإنما أكتب لأشوق إلى القراءة وأدفع إليها دفعًا . وأنا ضامن لك أشياء إن قرأت هذه القصة فأنت ستنفق ساعات لذيذة حقًّا فى الاستماع لهذا الروح العذب والاستمتاع بهذا الجمال الخالد ، وأنت ستعرف شيئًا كثيرًا مغنيًا عن حياة الأمراء الألمانيين فى القرن الثامن عشر ونظم الحكم فى هذه الإمارات التى كانت تقوم على الظلم والاستبداد ، وأنت سترى النفس الألمانية الشعبية الوادعة التى كانت تؤمن بالله وتستسلم لقضائه وترى الخلق الكريم آثر عندها من أى شىء آخر وتطمح مع هذا كله إلى الحرية وإظهار الشخصية الإنسانية كريمة مرعية الحرمات ، وأنت سترى بعد هذا

كله طموح الشباب الألمانى المثقف إلى حياة جديدة تقوم على شرف الخلق وعلى المروءة والكرامة أكثر مما تقوم على شرف المولد وضخامة الثروة واتساع الجاه ، ثم أنت سترى بعد هذا وذاك أجمل تصوير لآثار الحب العنيف فى النفوس الطاهرة الكريمة وفى حياة الذين يملكون هذه النفوس .

وأظننى أهدى إليك أحسن هدية حين أدلك على مثل هذا الكتاب ، وأقدم إليك أحسن جميل حين أتيح لك قراءته ، ولست أنتظر منك جزاء ولا شكرا إلا أن تقرأ هذا الكتاب .

٢٢

دمعـــة

موقد عظيم فى زاوية من زوايا الحجرة تحترق فيه قطع ضخمة من جذوع الشجر وأغصانها ، ويختصم فيه الضرام أشد الخصام ، وينبعث منه لهب رائع ينشر فى الجو حرارة حلوة هادئة تبعث فى الأجسام همودًا يشبه الجمود ، ويكاد يمنع العقول من الحركة والتفكير ، وعن شمال هذا الموقد رف منخفض صغير يحمل مصباحا كهربائيا ضئيلاً قد اتخذ لنفسه أو اتخذت له ربة البيت قلنسوة ضخمة من الورق المقوى ، وعن يمين هذا الموقد وشماله مع شىء قليل من الانحراف كرسيان طويلان اطمأنا عليهما ينعمان بهدوء الليل وحرارة الجو فى الحجرة بعد كد النهار وجهده ، وعلى شدة البرد فيما وراء النافذة ودون الباب . وينعمان كذلك باضطراب هذين الصبيين من حولهما وانطلاقهما فى أحاديث مختلفة لا ضابط لها ولا نظام ولا حد ، وإنما هو نشاط عظيم متصل يدعو إلى حركات عنيفة متصلة وإلى أحاديث لا تنقضى ولا تريد أن تنقضى ولا تحب أن تنقضى . ثم يدار مفتاح فتنتشر فى الحجرة نغمات موسيقية يحملها الراديو ، ولكن هذه النغمات لا تلبث أن تملأ صدر الأبوين حرجا وضيقا ،

لأنها فاترة متشابهة خالية أو كالخالية مما يلذ العقل أو يمس القلب أو يثير الشعور ، وهى من أجل ذلك لا تهدئ من حركات الصبيين ولا تخافت من صوتهما ولا تقطع أحاديثهما ولا تردهما إلى السكون أو الأناة ، وإنما تغريهما بالنشاط إغراء ،وتدفعهما إلى التضاحك دفعا وتغرقهما فى العبث إغراقا . وأبواهما ينظران إليهما وينعمان بهما . يظهران : الزهد فيما هما فيه من عبث ، وإنهما لأشد الناس حرصًا على أن يمضيا فيه ويتزايدا منه . ويتكلفان أمرهما بالهدوء والسكون ، ويودان فيما بينهما وبين أنفسهما لو يعصيان هذا الأمر ويرفضان الطاعة له والإصغاء إليه ، وهما يعصيان الأمر ويمضيان فيما هما فيه من عبث ودعابة لأنهما يفهمان أبويهما حق الفهم ويعرفان منهما مواطن الضعف ، ويفرقان بين الأمر الذى يصدر عنهما وكله حزم وجد والأمر الذى يصدر عنهما وكله تكلف للحزم والجد . والقطع الضخمة من جذوع الأشجار والأغصان تحترق فى الموقد والضرام ماض فى الخصام ، واللهب ينبعث فيبعث الحرارة فى الجو والهمود فى الأجسام .والكسل فى العقول ، والليل هادئ من حول الأسرة أشد الهدوء والبرد شديد فيما وراء النوافذ ودون الباب ، والصبيان يعبثان والأبوان ينعمان ثم تنقطع الموسيقى الفاترة المتشابهة ، ويعلن المذيع فى الراديو إلى المستمعين قطعة جديدة عنوانها « دمعة » ومنشئها « موزرسكى » ، هنالك يهدأ الصبيان وينشط الأبوان وتسمع الأسرة كلها فى صمت ملؤه التأثر والإعجاب لهذه القطعة التى لم تسرف فى الطول ، ولم تسرف فى القصر ، ولكن حظها من الثروة والغنى

كان عظيمًا إلى أبعد حد وأقصى غاية ، ولكنها أثارت فى نفوس هؤلاء الأربعة ألوانًا من الحزن والأسى لا تكاد تحصى ولا تحصر ، ولم ينطق أحد من هؤلاء الأربعة بحرف حين انقضى التوقيع ، ولكن كان بينهم إجماع صامت على أن هذه القطعة كانت جميلة ومؤثرة ، ثم يتحدث المعلن بما شاء من الحديث ، ويذيع الراديو ما أحب من الموسيقى وتخمد النار وتهدأ الخصومة بين الضرام ويرتد اللهب إلى الموقد ويأوى أعضاء الأسرة إلى مضاجعهم ويستقبلون النهار كما تعودوا أن يستقبلوه ، كل يضطرب فيما تعود أن يضطرب فيه ، هو ومع ذلك فقد خلا رب البيت إلى نفسه حين آوى إلى مضجعه وأخذ يفكر فى هذه القطعة الموسيقية ويسأل نفسه عن معناها وعن غايتها ، وعما بينها وبين عنوانها من صلة ، ويسأل نفسه أيمكن أن تلهم دمعة كل هذه الأنغام ، وأن تلائم بين كل هذه الألحان وأن تثير كل هذه الخواطر وأن تبعث كل هذه المعانى . أمن الحق أن صاحب هذه القطعة قد أراد أن يصور دمعة من الدموع ، أم هو عنوان وضعه مصادفة بعد أن أنشأ قطعته الموسيقية إنشاء . وماذا عسى أن تكون هذه الدمعة ؟ أكانت دمعة فرح وأمل أم كانت دمعة حزن ويأس ؟ أجادت بها عين أب أم عين أم ؟ أجادت بها عين أخ أم عين أخت ؟ أجادت بها عين محب أم عين محبة ؟ أجادت بها عين بائس محروم قد حيل بينه وبين لذات الدنيا ؟ أجادت بها عين مؤمن منيب قد امتلأ قلبه بخوف الله ؟

وأدرك النوم صاحبنا وان هذه الأسئلة الكثيرة لتزدحم فى نفسه ازدحامًا ، وتثير فيها خواطر لا يجد لها تصويرًا ولا يستطيع إحصاء .

وقد تقدم النهار من الغد ولم يخل الصباح من هذا الخلاف العنيف الذى يثور بين الصبيين كلما ابتدأت أو انتهت ساعة ولكن هذا الخلاف لم يثر فى ذلك اليوم إلا حين تقدم النهار بعض الشىء لأن الصبى كان قد وثب من سريره فجأة كأن خاطرًا عنيفًا أيقظه من نومه الهادئ العميق . وثب من سريره فجأة فلم يفتح باب غرفته ولم يشارك أهل البيت فى نشاطهم الأول ، وإنما جلس إلى مكتبه ومضى يجرى قلما على قرطاس كأنما انقطعت الأسباب بينه وبين من حوله . وما حوله ، فلما دعته أخته إلى طعام الإفطار لم يجبها إلا متكاسلا متثاقلا ثم مضى بعد ذلك فى حياته اليومية كما تعود أن يمضى .

وقدتمت الساعة الثانية بعد الظهر وعادت الأسرة فاجتمعت حول الموقد على نحو ما كانت مجتمعة حوله أمس ولكن نار الموقد لم تكن حية ولا نشطة وإنما كان كل شىء فيه هامدًا خامدًا إلا هذه الزهرات التى قامت عليه . تبسم للشمس التى كانت تملأ الحجرة بشعاعها الحار الجميل ، والأسرة آخذة فيما تعودت أن تأخذ فيه من حديث ، وتهم الصبية أن تدير مفتاح الراديو ولكن الصبى يردها عن همها هذا ويستمهلها لحظة ليقرأ على الأسرة كلامًا لم يستطع أن يخرج من غرفته صباحًا قبل أن يكتبه ، بل قد هو دفع من سريره دفعًا إلى مكتبه ليقره على القرطاس ، وتسمع الأسرة للصبى محبة له عاطفة عليه تكاد تنثر عليه ابتساماتها . نثرًا لأنها تعودت أن تسمع منه من حين إلى

حين كلامًا منظومًا يمثل طهر الصبا وبراءة الطفولة ، والصبى يقرأ كلامه المنظوم والأسرة واجمة لما تسمع ، وقد أتم الصبى مقطوعته الجميلة وإذا دمعة قد انحدرت من عين أمه رآها الصبى فبهت ، ثم اندفع إلى أمه يقبلها تقبيلا ويكاد يمسك دموعه أن تنحدر .

ذلك أن الصبى كان قد صور فى مقطوعته الصغيرة مجلس أسرته حول الموقد فى أمس وتأثرها بتلك القطعة الموسيقية ، وكان التصوير صادقًا وكان مؤثرًا وإذا هو يطلق من عين أمه هذه الدمعة الحلوة .

ليت شعرى لو شهد موزرسكى هذه الدمعة التى أسالها شعر هذا الصبى أكان ينشئ فيها قطعة موسيقية كقطعته تلك ؟ هذه الموسيقى ملأت نفس الصبى جمالا وحنانًا وحبًا فأنطقته بالشعر الجميل . فما الذى يمنع هذا الشعر بل ما الذى يمنع هذا المنظر الذى أنشد فيه هذا الشعر وانحدرت فيه هذه الدمعة التى تصور الحب والبر والحنان والعطف والكبرياء والرجاء أن تلهم صاحب الموسيقى قطعة لا تسرف فى الطول ولا تسرف فى القصر ولكن لها من الثروة والغنى حظا عظيمًا ليس إلى إحصائه ولا إلى تقديره من سبيل ، أجل ولكن موزرسكى لم يشهد ذلك المجلس .

٢٣

سهرة مع شكسبير

وفوز آخر عظيم أدركته الفرقة القومية للتمثيل فيما تمثل من قصص شكسبير بعد ذلك الفوز الذى أدركته فى الأسبوع الماضى حين مثلت قصة أهل الكهف ،ولكن فوز هذا الأسبوع أصرح وأجلى وأبهر من فوز الأسبوع الماضى ، لأن ملهم الممثلين ومنطقهم ومحركهم هو شكسبير ، وما أظن ذلك يغضب الأستاذ توفيق الحكيم فليس على أنبه النابهين وأنبغ النابغين وأكتب الكتاب بأس أن يتقدم عليه شكسبير .والحق أن قصة أهل الكهف على ما فيها من جمال وروعة واستحقاق للبقاء وللبقاء الطويل ، لم تكن قد أنشئت للملعب . فحسب الممثلين فخرًا وفوزًا أنهم قد حملوا الملعب على قبولها وأجروها أمام النظارة على ذلك النحو الجميل الموفق الذى وصفته للقراء يوم السبت الماضى ، فأما قصص شكسبير فقد أنشئ للتمثيل بل هو التمثيل نفسه ، سواء أجراه الممثلون فى الملعب أم خلا إليه القارئ فى الكتاب ، فأشخاص شكسبير أحياء ينطقون ويعملون ويملؤهم النشاط ، وهم يفرضون صورهم عليك فرضًا وإن لم تتخذ هذه الصور أشخاص

اللاعبين لها مظهرًا . وليس معنى هذا أن تمثيل القصص الذى منحه الخلود هذا الشاعر العظيم شىء يسير ، كلا ، بل هو من أصعب الأشياء وأمرها وأشقها على أشد الممثلين براعة وأعظمهم حظًا من التفوق والتجويد ، فأشخاص شكسبير أحياء ينطقون ويعملون كما قلت ، ولكن الجهد كل الجهد والمشقة كل المشقة ، والعناء كل العناء ، أن يعرف الممثل كيف يحبون أو كيف ينطقون ، وكيف يعملون ، أو أن يعرف الممثل كيف أراد شكسبير أن يحيوا وينطقوا ويعملوا ، وأن يعرف بعد ذلك كيف يؤدى حياتهم ونطقهم وعملهم إلى الناس .

وليس من شك فى أن لتمثيل هذا القصص الخالد سننًا موروثة وعادات مألوفة وطرقا مرسومة رسمًا دقيقًا إلى حد قريب أو بعيد ، وليس من شك فى أن الممثلين المصريين لم يعرفوا هذه السنن على وجهها ، ولم يدرسوها فى بيئتها ولم يستقوها من ينبوعها ،فهم من أجل ذلك مجتهدون قد حاولوا أن يفهموا فوفقوا من الفهم إلى حظ عظيم ، وحاولوا أن يؤدوا ما فهموا فوفقوا إلى إحسان الأداء .

ولابد من أن أعترف فى صراحة وإخلاص بأنى ذهبت أمس إلى ملعب الأوبرا وأنا أقدر أنى سأخرج منه محزونًا كئيبًا وسأجد فيه مسخًا كبيرًا يفسد أشخاص شكسبير إفسادا عظيمًا ، ولم أكن أرجو الخير والعزاء إلا عند الأستاذ جورج أبيض لأنى أعرفه وأعرف ثقافته العالية

فى الأدب والتمثيل وأعرف حسن استعداده الرائع لإجادة الفهم وإحسان الأداء ومعذرتى أنى لا أعرف الممثلين المصريين حق المعرفة لأنى قليل التردد على ملاعب التمثيل العربى ، ولكنى خرجت أمس من ملعب الأوبرا ، وقد تقدم الليل وإنى لمغتبط أشد الاغتباط مبتهج أشد الابتهاج حريص كل الحرص على أن أعتذر إلى هؤلاء الممثلين من سوء الظن بهم ، قبل أن أشهد تمثيلهم الذى كان امتحانًا شاقًا عسيرًا إلى أبعد حدود العسر ، وهم مع ذلك قد نهضوا بهذه الأعباء الثقال نهوضًا شريفًا لا يستحق التشجيع ، بل يستحق أكثر من التشجيع ، يستحق التهنئة والإعجاب لا أكاد أستثنى منهم إلا أشخاصًا قليلين جدًا لا أسميهم لأنى مازلت أنتظر منهم خيرًا كثيرًا ، سيأتى من طول التجربة ، ومن طول التجربة الدقيقة المنظمة التى لا تعبث بها الأهواء ، ولا يتحكم فيها اللين والتسامح ، إن صح هذا التعبير ، فالفن والفن الجميل خاصة نظام قبل كل شىء ، ونظام دقيق حازم لا هوادة فيه ولا رفق ولا لين ، وليس قليلا أن ينهض الممثلون المصريون الذين لم يتثقف أكثرهم بالثقافة الإنجليزية ولا بالثقافة الأجنبية بوجه عام ، ولم يختلف أكثرهم إلى مدرسة من مدارس التمثيل ولا يستطيع أكثرهم أن يقرأ شكسبير فى لغته الإنجليزية أو فى لغة بعيدة العهد بالأدب التمثيلى ، ولا يستطيع أكثرهم أن يقرأ النقد الفنى للقصص التمثيلى وللتمثيل نفسه فى أصوله الأوربية ، ليس قليلاً ، أن ينهض الممثلون المصريون مع هذا وبرغم هذا بتمثيل قصة عسيرة من

قصص شكسبير كالتى يمثلونها الآن ، فإذا هم يبلغون من النظارة ما يريدون من الرضى والإعجاب .

ولقد كنت أسمعهم أمس وهم يجربون ألسنتهم المستقيمة بلغتنا العربية الفصحى فيلقون فى عقولنا وقلوبنا حكمة الشاعر العظيم وأدبه ويلقون فى نفوسنا فن الشاعر العظيم وجماله فأكاد أعلن إعجابى بهم وهم يقولون ويعملون لولا أنى شديد الحرص على ألا أفسد عليهم عملهم ولا أفسد على نفسى لذتها ولا أخرج عن هذه الآداب التى أسميها آداب الملعب . لا يذعن لها النظارة جميعا إذعانًا حسنًا .

لقد سمعت أثناء تمثيل أهل الكهف موظفًا كبيرًا يجرى لسانه أثناء التمثيل بما أستحى أن أذكره حين أخلو إلى نفسى ، ولقد سمعنا جميعًا أمس أحد النظارة يملأ فمه بتثاؤب لم يخف على أحد من الذين شهدوا التمثيل بل أضحك منهم فريقا وضايق منهم فريقًا آخر ، وكنت من الذين ضاقوا به وضحكوا منه فى وقت واحد ، وليس من شك فى أن إتقان الممثلين لفهم الصعب أعظم جدًا من إتقان النظارة لفهم السهل اليسير ، ولست أحب أن أذكر أشخاص الممثلين لأنى لا أتكلف فى هذا الحديث نقدًا فنيًا خالصًا دقيقًا ، ولكنى أظلم نفسى وأظلم الحق إذا لم أثن هنا على الأستاذ جورج أبيض ، ولم أنوه بهذا الجهد العظيم الذى نهض به كأحسن ما ينهض به الممثل الذى يتقن فنه ، أحسن الإتقان ويأخذ من الثقافة الأدبية الراقية بحظ عظيم حقًا ، لقد

كان موفقًا كل التوفيق فى هذه الأطوار المختلفة المتباينة التى مرت به أو مر بها . كان ملكًا ضعيفًا يخدعه النفاق فيحسن الانخداع ، وكان ملكًا طيب القلب يحسن طيبة القلب ، وكان ملكًا جلدًا صبورًا يحسن الصبر والجلد ، وكان ملكًا ثائرًا غضوبًا يحسن الثورة والغضب ، وكان ملكا عنيفًا عنيدًا يحسن مقاومة الطبيعة الثائرة والثبات بها ،وكان ملكا مجنونًا يحسن الجنون الحكيم ، وكان آخر الأمر أبا رحيمًا يعرف كيف يمس القلوب بما يملأ قلبه من رحمة وحنان . ولا أستطيع أن أهمل الأستاذ « منسى فهمى » ، فقد أحسن كل الإحسان فى إخلاصه للملك كما أحسن كل الإحسان فى انخداعه لابنه الشرير ، ومهما أنس فلن أنسى إحسانه حين ألمت به المحنة فعرف كيف يتألم وكيف يجرى الألم فى نفوسنا .

وأظلم كل الظلم إن أهملت « الأستاذ حسين رياض » ولا سيما حين اصطنع الجنون ويمثل العفريت ، فقد كان مبدعًا حقًّا ، والأستاذ « عباس فارس » كم كان مجيدًا موفقًا فى صراحته .

ولقد كنت أكره أن أسمى الأشخاص وهأنذا قد أخذت فى تسميتهم ولكن الإنصاف وحده هو الذى اضطرنى إلى هذه التسمية اضطرارًا ، وهل يؤذن لى فى أن أثنى على الممثلات لحسن منطقهن وأتمنى أن يوفقن إلى أن يضعن شيئًا من شعورهن ونفوسهن فيما يجرين على

ألسنتهن من حوار . فقد يخيل لى أن الحرص على حسن الأداء اللغوى قد صرفهن بعض الشى عن حسن الأداء الفنى .

أما بعد فإنى أجدد التهنئة للفرقة القومية صادقًا مخلصًا وأحمد الله على أن أتيح لنا ، بفضل هذه الفرقة أن نستمتع استمتاعا صحيحًا بعظمة شكسبير فيما كتب وبيان الأستاذ « رمزى » فيما ترجم وبراعة الممثلين فيما مثلوا . وكم كنت أحب أن أقف بالحديث عند هذا الثناء ، ولكنى مع الأسف الشديد مضطر إلى أن أنكر شيئًا يشاركنى فى إنكاره كثير من الناس وهو هذا التناوب الذى أبيح لممثلين فى دور الملك فهذا الدور ينهض به الأستاذ « عزيز عيد » مرة وينهض به الأستاذ « جورج أبيض » مرة أخرى ، وفى هذا التناوب لأول عهد الفرقة بالوجود شر كثير ، فهو يدل على روح التنافس الذى لا ينبغى أن ينتهى إلى هذا الحد ، ولا أن يظهر على هذا النحو ، والذى يقتضى من إدارة الفرقة حزمًا وشدة وإصرارًا .

وفى هذا التناوب شىء من الظلم للممثلين المتناوبين فإن الذين يرون أحدهما قد لا يتاح لهم أن يروا أحدهما الآخر ، ولعل الذى لا يرونه أن يكون أبرع من الذى رأوه فهم مظلومون ، ولعل الذى رأوه أن يكون أبرع من الذى لا يرونه فهو مظلوم ، وهما بعد ذلك مختلفان فى الطبيعة والمزاج والمذهب ، فالناس يشعرون بالحاجة إلى أن يروهما جميعا ، وهذا كثير ولا سيما حين لا تمثل القصة إلا خمس مرات .

فلتأخذ إدارة الفرقة بشىء من الحزم ولتنتظر عاما أو عامين قبل أن تبلغ هذا اللين الذى يرخص لها بمثل هذا التناوب ، ولم تتح لى الظروف أن أشهد تمثيل الأستاذ « عزيز عيد » لشخص « الملك لير » وأكبر الظن أنى حرمت شيئًا عظيمًا .

٢٤

الوزير وصاحبه الفيلسوف

كان الوزير محزونا كئيبا حين دخل عليه صديقه الفيلسوف ، فلم يلقه بما تعود أن يلقاه به ، من هذه البشاشة الطلقة الصادقة التى تصور إشراق النفس والوجه معا ، وأحس الفيلسوف من صاحبه هذا الفتور الذى لم يألفه فلم يضق به ولم يجد له ألما ، وإنما رق له ووجد فى نفسه رحمة وحبا وإشفاقا ، فقد كانت الأحداث من حول صديقه الوزير ثقالا ، وكانت الخطوب كثافا ، وكان الماضى مشرقا والحاضر مظلما والمستقبل يحجبه سحاب مكفهر ، فلم يشك الفيلسوف فى أن صديقه الوزير قد أثقلته الهموم ، وأكل ذهنه طول التفكير ، ونشأ عن هذا وذاك ما ينشأ عنهما عادة من هذا الضعف الذى يصيب الأجسام فتفتر له النفوس والألسنة وتظلم له الوجوه بعض الإظلام ، ومن أجل هذا رق الفيلسوف لصديقه ، ورفق به ، واستجمع كل قدرته على الدعابة والفكاهة والمزاح . وقال لصديقه إن استطعت أن أسرى عنك بعض ما أنت فيه لحظات قصارا وأن أرد إلى نفسك بعض الدعة ، وإلى ثغرك بعض الابتسام ، وإلى وجهك شيئا من انبساط

الأسارير ، فأنا سعيد حقا وحسبى هذا فى يومى كله ، ثم مضى يداعب صاحبه ويتكلف له القصص التى تملؤها الفكاهة ، ولكن صاحبه لم ينشط لقصصه ولا لفكاهته وإنما ظل فاتر القلب مظلم النفس والوجه معا ، وكاد الفيلسوف ييأس من تنشيط صاحبه ورده إلى شىء ، ولو قليل من الدعة والرضى ، هنالك رأى الفيلسوف أن الخير فى أن يأخذ صاحبه من طريق الجد وأن يتحدث إليه فيما يثقله من الأحداث ، وما يحيره من الخطوب ، وكان يقدر أن الوزير الذى لا يشتغل وقته كله بما يحيط به من أحداث السياسة ، ولا يتكلم إلى أصدقائه إذا لقيهم فى أحداث السياسة لم يوجد بعد ، وأن الوزراء لم يخلقوا جميعا ليكونوا فلاسفة وليمزحوا حين تدعوهم الحوادث إلى الجد .

ولكنه لم يكد يحدث صاحبه فى بعض ما يشغل الحاكمين والمحكومين من الأمر حتى ظهر على الوزير تبرم شديد وقال لصديقه الفيلسوف : أرحنى من السياسة وأحاديثها أراحك الله مما تكره ، قال الفيلسوف : فإنى لا أدرى كيف أنتهى إلى نفسك لقد سلكت إليها طريق الهزل فوجدتها موصدة وهممت أن أسلك إليها طريق الجد ، فإذا أنت تغلقها أمامى ، أفتريد أن أنصرف عنك لتخلو إلى ما أنت فيه من هم وحزن ومن جد وعمل ، فإن الأصدقاء يثقلون على أصدقائهم من حيث يظنون أنهم يخفون عنهم ويرفهون عليهم . قال الوزير : أقم فما أحببت لقاءك فى يوم كما أحبه الآن وما فرحت

بزيارتك قط كما أفرح بها الآن . قال الفيلسوف : فإنى لا أرى على وجهك أثرا من آثار الفرح ولا مظهرا من مظاهر الابتهاج ، قال الوزير : رب فرح خفى أشد بهجة وجمالا من فرح ظاهر .

ولولا أنى أكره أن أشق عليك أو أحملك ما لا تطيق أو مالا تحب لطلبت إليك أن تلقانى فى كل صباح وقتا ولو قصيرا فإنى أجد فى هذا اللقاء عزاء لا يشبهه عزاء وتخفيفا لا يشبهه تخفيف ، قال : وما ذاك ؟ قال الوزير : لقد سئمت هذا الديوان وضاقت نفسى أشد الضيق ، ولو خيرت لقطعت الأسباب بينى وبينه منذ زمن بعيد فأعنى بزيارتك على احتمال أثقاله أعانك الله على الحياة ، قال الفيلسوف وما ذاك ؟ قال الوزير : ذاك أنى كرهت عشرة الرفيق وصحبة الرفيق وخدمة الرفيق وحديث الرفيق ، ويملأ صدرى سرورا وبهجة ، وراحة وأملا أن أتحدث إلى رجل حر دقائق فى الليل أو دقائق فى النهار ، قال الفيلسوف : وما ذاك ؟ قال الوزير : ذاك أنى سئمت هؤلاء الذين يطيعوننى قبل أن آمرهم ويسبقوننى إلى الشىء ، قبل أن أتقدم إليهم به ، ويفنون أنفسهم فى نفسى ، وأشخاصهم فى شخصى ، وأوقاتهم فى وقتى ، وجهودهم فى جهدى ، ويعيشون من حولى عيشة الحشرات أو عيشة شرا من عيشة الحشرات ، قال الفيلسوف : وما ذاك ؟ قال الوزير : لقد أخذت تثقل علىَّ بقولك وما ذاك كأنى أحدثك بحديث الشمس أو بحديث القمر أو بشىء لا تفهمه ، وإنك لتفهم ما أريد ، وإنك لترثى لى مما تفهم . قال الفيلسوف وهو يغرق فى الضحك : وما ذاك ؟ ثم اعتدل فى مجلسه وقال لصاحبه : أمحتاج

أنت إلى أن تنفق فى منصب الوزارة ما أنفقت من الوقت الطويل ، لتستكشف أن أثقل شىء فى صناعة الوزير ليست هى السياسة وأحداثها ، ولا الإدارة وأثقالها وإنما هى الناحية الخلقية من الصلة بينه وبين مرؤوسيه ، فإن للسياسة ظروفها وصروفها وليس يطلب إلى الوزراء إلا أن يبذلوا ما يملكون من كفاية وإخلاص ونية صادقة ليصرفوها كما يستطيعون : فإن أدركهم العجز استقالوا أو أقيلوا وإن للإدارة نظمها وقوانينها ، وأصولها ومناهجها ، وليس على الوزراء إلا أن يستقبلوها بما يملكون من كفاية ونزاهة فإن أدركهم العجز استقالوا أو أقيلوا . فأما الموظفون فهم الذين لا يملك الوزير فى أمرهم شيئا ولاسيما حين يكون نزيها كريما . ليس هو الذى أنشأهم ، ولا هو الذى كون أخلاقهم ، وصور نفوسهم ، وإنما جاء إلى الديوان فوجدهم فيه ، كما خلقهم الله من جهة وكما نشأهم أهلهم وبيئتهم من جهة أخرى ، وكما صورت نظم الحكم وعهوده المختلفة من جهة ثالثة ، فهو لا يملك لهم تغييرا ولا تبديلا وهو لا يملك لهم عزلا ولا نقلا ، إلا أن يدركهم ضعف أو يصيبهم عجز أو يظهر عليهم نقص ، فإن فعل فنقل أو عزل لغير هذه الخلال ، فهو ظالم متحكم ، فليس عليه إذن إلا أن يأخذهم كما وجدهم وأن يقبلهم بعيوبهم كما يقول المثل ، قال الوزير : وهذا هو مصدر المحنة وأصل البلاء ، فلقد أقبلت على هذا الديوان حرا ، وكنت أظن أنى سأعمل مع قوم أحرار فإذا أنا لا أرى إلا قوما خلقوا للطاعة لا للإرادة وللإذعان لا للمقاومة ، وللتنفيذ لا للابتكار ، وللتشكل بما يريد الوزراء أن يفرضوا عليهم

من الأشكال ، ولقد أنفقت وقتا وأنا مخدوع عنهم بنفسى أرى منهم الرضى بكل شيء ، والإسراع إلى كل شيء ، ولما كنت مؤمنا برأى فى الإصلاح والتنظيم مقتنعا به أشد الاقتناع ، فقد ظننت انى قد نقلت إليهم إيمانى واقتناعي ، وأنهم يصدرون مثلى عن إيمان واقتناع . ولكن لم ألبث أن تبينت أن قلوبهم قد أغلقت فلا يبلغها إيمان وأن عقولهم قد صدئت فلا ينالها اقتناع ، وأنى لا أعمل مع قوم يشعرون ويفكرون وإنما أعمل مع أدوات لا تقاوم ولا تمانع ، قال الفيلسوف : وما يسوءك من هذا فاتخذهم أدوات لما تريد واجتهد فى ألا تريد إلا الخير . قال الوزير : وددت لو كنت مكانى لتعلم أن الفرد مهما يكن قويا فهو ضعيف ، ومهما يكن ذكيا فهو فى حاجة إلى الرأى والمشورة . ثم لتعلم أن أثقل شيء على الرجل الحر ألا يرى حوله فى الليل والنهار إلا الأرقاء ، قال الفيلسوف : ألست ترى أنك تغلو فى القول ، وتسرف فى سوء الرأى فلن تعدم فى ديوان ضخم كهذا رجلا حرا يسليك عن رقة الأرقاء ، مبتكرا يسليك عن استسلام المستسلمين . قال الوزير : أستغفر الله وأتوب إليه وكيف يعيش الأحرار فى بيئة العبيد ، لقد كدت أن أفقد حريتى وإرادتى وأن أستسلم مع المستسلمين وأصبح أداة من هذه الأدوات ، ولو أنى عرفت كيف أصور أمرى مع هؤلاء الناس تصويرا معقولا مقبولا لاستقلت فرارا بحريتى وإرادتى وأخلاقى من بيئة لا تقدر فيها الحرية ولا الإرادة ولا الأخلاق ، ولكن ماذا أصنع والأحداث من حولنا كما ترى والخطوب تأخذ الناس عن يمين وشمال ، قال الفيلسوف : فإن لى

رأيا أعرضه عليك ولست أدرى أتقدر عليه ، بل لست أدرى أأقدر أنا عليه . قال الوزير : وما ذاك ؟ قال الفيلسوف مبتسما : إذا أقبلت على ديوانك فى كل صباح فافرض أنك نقبل عليه لأول مرة ، وأنك لم تتلق الأمر الذى يرفعك إلى منصب الوزير إلا قبل أن تبلغه بساعة أو بعض ساعة ، استقبل أمرك فى كل يوم كما استقبلته فى أول يوم ، وافرض هؤلاء الناس أحرارا فى كل يوم كما فرضتهم أحرارا فى أول يوم . خادع نفسك عنهم فإن من أمور الحياة ما لا يستقيم إلا إن خدعنا عنه أنفسنا ، قال الوزير وقد عاد إليه حزنه واكتئابه : أيسر من هذا أن تزورنى فى كل يوم حتى يكشف الله عنا هذه الغمة ، قال الفيلسوف : معذرة إليك أيها الصديق ، فإنى أخشى أن انتهى إلى مثل ما انتهيت إليه وأن أتعرض لفقد حظى من الحرية والإرادة ولى بين هؤلاء الناس الذين تعمل معهم أو تصرفهم من ليس بينه وبينى عداء أو شىء يشبهه العداء ، فأنا أخشى إن ترددت عليك أن يصبحوا لى جميعا عدوا . والناس أهون من أن أعاديهم . قال الوزير : أرأيت حتى الفلسفة لم تستطع أن تثبت للموظفين .

❑ ❑ ❑

كان هذا الوزير وصاحبه الفيلسوف فى الصين وما أظن إلا أن لهما أمثالا فى أكثر بلاد الأرض .

٢٥

قلبى يمزقه الألم

كانت أمها تهيئ لها أسباب الابتهاج الحزين بعيدها الذى تشرق عنه شمس اليوم ، وكان أبوها يهيئ لها أسباب الابتهاج الحزين بهذا العيد الذى ستشرق عنه الشمس غدا أو بعد غد ، فقد أراد الله أن يتقارب عيدا هذين الأبوين فى هذا العام . ولكن الله عز وجل آثر هذه الصبية بعيد آخر هو أجمل من أعياد الدنيا وأكثر بهجة ونعمة وبشرا وحبورا ، عيد لا تفسده اللذة الباطلة ولا يشوبه غرور الحياة ، عيد سرمدى متصل أعده الله لهذه النفوس البريئة الطاهرة التى لم تعرف الإثم ولم تمسها أو ضار الدنيا ، وإنما جاءت هذا العالم نقية وخرجت منه نقية بعد أن ألمت به إلمامة قصيرة كلها صفو ونقاء ، وكلها بشر لأبويها وأخويها ورفاقها ومن يتصل بها من قريب أو من بعيد .

آثر الله هذه الصبية بهذا العيد السرمدى المتصل ، فلم تخسر شيئا حين فارقت الدنيا وقد كاد يظلها عيد أمها اليوم وعيد أبيها بعد يومين .

آثرها الله بهذا النعيم وآثر أبويها بهذا الحزن اللاذع الذى يمتحن به الناس ويصفى به القلوب ، ويهذب به النفوس ويعلم به العقول :

ان قضاء الله لا مفر منه وان الموت حق وإن للناس آجالا موقوتة لا يستأخرون عنها ساعة ولا يستقدمون . لكما الله أيها الصديقان فقد كنا نفكر فيكما تفكيرا متصلا ونرثى لكما رثاء متصلا ونعطف عليكما عطفا متصلا ، ولقد كانت قلوبنا تتمزق ونفوسنا تتفرق حين كنا نراكما تهيأن لهذه الصبية ما يسرها فى هذين العيدين ، وأن اليأس فى نفوسكما لأقوى من الأمل وأن القنوط فى قلوبكما لأقوى من الرجاء ، ولكنكما على ذلك كنتما تخفيان الحزن والجزع ، وتظهران الفرح والابتهاج . تسحان دموعكما سحا ما دام باب تلك الغرفة مغلقا ، فإذا فتح اصطنعتم هذا الابتسام الذى لا يحسن اصطناعه إلا الأمهات والآباء ، حين ترق الأسباب بين أبنائهم وبين الحياة .

لله قلباكما أيها الصديقان حين كان يفطرهما الحزن اليائس ويدفعهما الحب والبر مع ذلك إلى شراء اللعب والإكثار منها ، والمغالاة بها . تريدان أن تستقبل الصبية هذين العيدين كما لم تستقبلهما قط . تريدان أن تبتهج فيهما وتأنس إليهما كما لم تبتهج قط ، وكما لم تأنس قط ، أكنتما تريدان أن يكون آخر عهدها بالحياة سرورا لا عهد لها بمثله ؟ أكنتما تريدان أن يكون آخر ما بينها وبين الحياة ابتسامة حلوة طاهرة من هذه الابتسامات التى لا يحسنها إلا الأطفال .

كلا . لم تكونا تريدان شيئا ، لم تكونا تفكران فى شىء ، لم تكونا تقدران عاقبة ، كنتما يائسين ولكنكما كنتما تأبيان أن تستسلما

لليأس ، كنتما تحبان ابنتكما وترحمانها وترفقان بها وتريدان أن تقضيا عيدين سعيدين ، اطمئنا أيها الصديقان فإنها ستقضى عيدين سعيدين فى جوار الله أسعد ألف مرة ومرة من هذه الأعياد التى يقضيها الأطفال بين الآباء والأمهات ، فأما أنتما فيصنع الله لكما ويرفق الله بكما ويحسن الله عزاءكما ومعونتكما على استقبال هذين العيدين ، بل على احتمال هذين العيدين ، الله وحده هو الذى يملك لكما العزاء ، والله وحده هو الذى يقدر على أن يسرى عنكما بعض ما يملأ قلوبكما من جزع ، فأما نحن فلا نملك إلا أن نشارككما فى الحزن ، ونشاطركما ما تجدان من لذع الأسى .

معذرة إليك أيها القارئ الكريم ، فقد كنت أتهيأ للتحدث إليك فى أمر من هذه الأمور التافهة التى تعودت أن أتحدث فيها إليك وكنت أريد أن أزين القول تزيينا وأن أفتن فى الفكاهة وألوان الزخرف ، وأن أجتهد فى أن أغرى بك الابتسام أو أغرى الابتسام بك وإنى لفى ذلك وإذا نداء التليفون ، وإذا ابنتى تسرع إلىَّ ، ثم تعود إلىَّ مجهشة بالبكاء قد اضطرب قلبها الصغير أشد الاضطراب وأوجعه .. وإذا هى تنبئنى فى صوتها الرخص الذى تقطعه العبرة فيقطع القلب بأن رفيقة صباها قد فارقت الحياة وإذا أنا أرثى لهذه الصبية الراحلة وأرثى لأبويها البائسين ، وأرثى لابنتى الوالهة وأهدىء ما حولى من جزع وأجفف ما ينهل حولى من دموع وأكتم فيما بينى وبين نفسى

حزنا لاذعا دفينا ، فقد كنت أحب هذه الصبية أشد الحب وأكلف بها أشد الكلف وأكاد أراها لى ابنة .

معذرة إليك أيها القارئ الكريم . لقد كنت أريد أن أحدثك بما لا يثير ألما ولا حزنا ولكن قلبى يمزقه الألم ونفسى يفرقها الحزن ، ولم أتعود أن أكذب القراء عن نفسى وما استطعت فى يوم من الأيام أن أسر الناس وأنا محزون .

٢٦

أطلب الصفح من قرائى

وينقضى اليوم هذا الشهر الكريم الذى استقبله المصريون مبتهجين به محزونين لما سبقه ومضى فيه من الأحداث ، والمسلمون يستقبلون هذا الشهر عادة فى شىء كثير جدًا من البهجة والرضى ومن الغبطة والاستبشار . يحبونه لأن نفوسهم تقرب فيه إلى الله ولأن قلوبهم تصفو فيه لله ، ولأن حب الله يزور قلوبهم ويطيل فيها المقام إن صح هذا التعبير . وكأن المسلمين يحتملون أشهر العام بما تبلوهم به وبما يبلون أنفسهم به من خير وشر ، ومن عرف ونكر حتى إذا أقبل شهر الصوم استقر فى نفوسهم أنهم يتخففون من كل هذه الأثقال التى احتملوها أثناء أحد عشر شهرًا ، وكأنهم حين يصومون لا يحتملون ألم الجوع والظمأ والحرمان طاعة لله ودينا فحسب ، وإنما هم يتقربون إلى الله عز وجل بالتخلص من أنفسهم التى مستها الأوضار وتكوين أنفس جديدة لهم قد طهرت من آثام الحياة ، كأنهم أو كأن نفوسهم تولد من جديد وتتكون أثناء هذا الشهر الكريم شيئًا فشيئًا قليلاً وقليلاً ، حتى إذا تم الشهر وكملت أيامه وأقبل العيد كانت نفوسهم الجديدة

قد تم تكوينها وبلغت أشدها ، فهى تستقبل العيد مبتهجة بما وفقت إليه من طاعة الله ومبتهجة بما وفقت إليه من هذا التكوين الجديد .

نعم والمسلمون يستقبلون هذا الشهر الكريم مبتهجين بما فيه من كل هذه المعانى الكريمة التى تمس الدين والخلق وتكوين النفس ، والإرادة ، وتصفية القلب وتهذيب الطبع ، وبما فيه من هذه اللذات البريئة فى أصلها وجوهرها ، والتى تتيح للأطفال أن يبتهجوا ، وينعموا ، وللفقراء أن يصيبوا حظًّا من يسر ، وللأشقياء أن يمسهم جناح من سعادة ورحمة . ثم هم يبتهجون بعد هذا وذاك لأن شهر الصوم هذا شهر سلام اجتماعى قد أنزل الله فيه القرآن حين أراد أن يتم نعمته على الناس ، ومضى ينزل فيه السكينة منذ ذلك الوقت ، على قلوب المسلمين ، فيملؤها حبًّا لله وحبًّا للناس معًا .

وأى شيء أجمل من هذا الشهر الذى تثوب فيه النفوس إلى بارئها بياض النهار ، صائمة له ، مفكرة فيه ، عابدة إياه ، فإذا أقبل الليل مضت فى عبادتها وذكرها وتفكيرها ، ومضت مع ذلك فى حياة اجتماعية حلوة بريئة أقل ما توصف به : جمال لا تكلف فيه ، تقرب بين الطبقات ، فالأغنياء يعطفون على الفقراء ، والسعداء يعطفون على الأشقياء ، وأصحاب النعماء يرفقون بأصحاب البأساء ، ويتصل التزاور بين أفراد الناس على اختلاف طبقاتهم فإذا سمر هادئ خصب تستمتع به نفوس هادئة خصبة ، وإذا لذات اجتماعية بريئة يشوبها

ذكر الله فى أعماق النفوس ويزينها ذكر الله بهذه الآيات الكريمة التى يتلوها القراء فى أكثر الدور .

هو شهر محنة كريمة تريدها النفس إرادة وتتعمدها تعمدًا ، تمتحن بها نفسها ، وتبتلى بها إرادتها وقدرتها على الصبر والثبات . وقد أراد الله لشهر الصوم فى هذا العام أن يمتاز من كثير من أشهر الصوم التى سبقته فى الأعوام الماضية ، فاستقبله الناس مبتهجين له ، محزونين لتلك الأحداث التى ألمت بهم ، واشتدت عليهم الفتنة فى أوله حتى أنكر بعضهم بعضًا ، وبغى بعضهم على بعض ، وكادت تفسد عليهم أمورهم كلها فسادًا عظيمًا ، فاحتملوا ذلك محتملين له ، صابرين عليه ونقلوه بما ينبغى للصائمين من سعة الأحلام واطمئنان النفوس وهدوء القلوب ، ثم لم يكد ينتصف هذا الشهر حتى كادت تبلغ المحنة أقصاها ، ولكن الله قد كان رفيقًا بهؤلاء المصريين فأبى أن يخلص هذا الشهر الكريم ، للمحنة والفتنة ، وقضى أن تصفو القلوب بعد كدر ، وتتقارب النفوس بعد تباعد ، وتجتمع الكلمة بعد افتراق ، وقضى أن ينصر المصريين على أنفسهم أولا بتحقيق الائتلاف ، وعلى خصمهم ثانيًا باسترداد الدستور فى نفس اليوم الذى أنزل نصره فيه على نبيه الكريم وأصحابه الأخيار ، يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان فى بدر .

وكذلك تمت نعمة الله على المسلمين فلم يمتحنهم هذا العام بالصوم وحده ، وإنما امتحنهم بالفتنة تبلو ما بينهم من الصلات ، وامتحنهم

بالشر يصيبهم من خصمهم الأجنبى حتى إذا رأى انه قد محصهم تمحيصًا وهذبهم تهذيبًا ، ورد نفوسهم وقلوبهم إلى ما ينبغى لها من الصفاء ، وأعدها لما يريد بها من خير ، أنزل عليهم سكينته ومنحهم نصرته ومعونته ، وأتاح لهم أن يقضوا هذه الأيام الأخيرة ، من هذا الشهر الكريم كأحسن ما تقضى الأيام الكريمة بين قوم كرام .

فهم يودعون اليوم هذا الشهر محبين له أشد الحب ، محتفظين له بأصدق الذكرى وأشدها امتلاء بالبر والعطف والحنان ، وهم يستقبلون هذا العيد الذى سيظلهم من الغد وقد ملئت قلوبهم حبا وأملاً .

فليصدق الله ظنونهم ، وليحقق الله آمالهم ، وليجعل هذه الدروس التى تلقوها فى هذا الشهر خصبة نافعة وليجعلهم من الذين تلم بهم العبر والمواعظ فينتفعون بها ، ولا يضيعون آثارها ومعانيها .

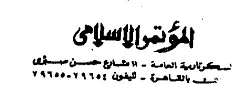
وليلهم القراء الذين تفضلوا بقراءة هذه الأحاديث شيئًا من الصفح عنى أن كنت قد أثقلت عليهم أو قصرت عن أن أبلغ ما كانوا ينتظرون منى خاصة ومن أحاديث رمضان عامة ، فقد شهد الله ما خلقت لهذه الأحاديث ولا خلقت لى ، ولكنى أمرت فأطعت ، ودعيت فأجبت والله لا يكلف الناس فوق ما يطيقون ، وخير ما ينبغى للصائمين أن يهتدوا بهدى الله فلا يكلفوا الكتاب فوق ما يطيقون

وثائق

Islamic Congress

GENERAL SECRETARIATE — 11, HASSA SABRI STREET, ZAMALEK, CAIRO — PHONES: 79654-79655





المؤتمر الإسلامي

السكرتارية العامة - ١١ شارع حسن صبري - الزمالك بالقاهرة - تليفون ٧٩٦٥٤-٧٩٦٥٥

سيادة الاستاذ الدكتور طه حسين

تحية واحتراما وبعد — لما كان من أهم أهداف المؤتمر الاسلامي نشر الثقافة والوعي الاسلامي والدعوة لدين الله الحنيف ، ونظراً لما للافلام السينمائية من أثر كبير على مختلف الشعوب والاقوام وان تباينت درجات ثقافتهم وطباعهم وعاداتهم ، لذلك ولما نعلمه عنكم من غيرة على الدين ومن استعداد دائم للمساهمة في كل دعوة تهدف الى نصرته ، فإنا نرجو سيادتكم بتقديم ماترونه صالحا من قصص وموضوعات يمكن تحويلها الى سيناريو لاخراجها في افلام سينمائية ، وسيادتكم تعلمون ماكان لافلام الدعاية المسيحية كفيلم الرداء واندركلوس والأسد وغيرها التي ظهرت في العام الماضي من أثر في الرأي العام العالمي .

اني لكبير الامل في أن يتمكن المؤتمر بفضل معاونتكم القيمة من الوصول الى النتائج المرجوه بإذن الله .

وتفضلوا سيادتكم بقبول اسمى عبارات الاحترام ..

قائمقام

انور السادات

وزير الدولة وسكرتير عام المؤتمر الاسلامي

تحريرا في ٨ مايو سنة ١٩٥٥

١ – رسالة من أنور السادات يقترح فيها على طه حسين سبل تعاونه مع المؤتمر الإسلامي .

المؤتمر الإسلامي

السكرتارية العامة ١١ شارع حسن صبري
الزمالك بالقاهرة
تليفون ٨٠٢١٥٤ – ٨٠٢١٥٥
٨٠٨٤٧١ – ٨٠٨٧٦٣ – ٨٠٨٧٩٨

Islamic Congress

GENERAL SECRETARIATE 11, HASSAN SABRI STREET
ZAMALEK, CAIRO
PHONES : 802154 - 802155
808471 - 808763 - 808798

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المحترم الاستاذ الدكتور طه حسين

تحية وتقديرا وبعد . فنشكركم على استعدادكم الكريم لمعاونتنا على أداء رسالتنا بكتابة بعض البحوث الخاصة بالاسلام .

وانى أقترح أن تتكرموا بالكتابة فيما يأتى : –

١– القرآن والحديث دستور اصلاح شامل .

٢– رسالة الاسلام وموضعها من سائر الرسالات .

٣– حرية الارادة وحرية الفكر فى الاسلام .

وتقبلوا فائق تحياتى ...

المخلص

تحريرا فى ١٤ يوليو سنة ١٩٥٥

قائمقام (أنور السادات)

انور السادات

السكرتير العام للمؤتمر الاسلامى

٢ – خطاب آخر من السادات يقترح فيه رؤوس الموضوعات التى يريد من طه حسين أن يكتب فيها .

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤتمر الإسلامي
السكرتارية العامة
الزمالك - القاهرة

٩٦٠/٦١ع

السيد الدكتور طه حسين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد •

فانني أشير الى كتاب سيادتكم المؤرخ فى ١ / ٤ / ١٩٥٨ الخاص بمد الأجل المتفق عليه لتسليم أصول كتاب " مرآة الاسلام " حتى آخر سبتمبر سنة ١٩٥٨ وأتشرف بابلاغكم أن المؤتمر يوافق على مد الأجل الى هذه الغاية •

وفيما يختص بالنص الوارد فى العقد الذى يجعل للمؤتمر جميع حقوق الطبع يوافق المؤتمر على أن يكون حقه مقصورا على طبع عشرين ألف نسخة من النص العربى للكتاب دفعة واحدة أو على دفعتين فى خلال خمس سنوات ينتهى بانتهائها حقه فى اعادة الطبع على كل حال • أما حق المؤتمر فى ترجمة الكتاب الى أى عدد من اللغات فانه يحتفظ به للمدة القانونية طبقا لما هو وارد فى العقد •

ويعتبر كتابكم المؤرخ فى ١ / ٤ / ١٩٥٨ والرد عليه بهذا الكتاب مكملين ومعدلين للاتفاق الأصلى المعقود فيما بيننا •

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،

السكرتير العام المساعد

(أحمد عبد الغفار)

القاهرة فى يوم ١٩ من رمضان ١٣٧٧هـ
الموافق يوم ٨ من ابريل سنة ١٩٥٨م

٣ - رد السكرتير العام المساعد للمؤتمر الإسلامى على طه حسين يجيبه فيه بمد أجل تسليم أصول الكتاب المتفق عليه .



Islamic Congress
GENERAL SECRETARIATE: 11, HASSAN SABRI STREET
ZAMALEK, CAIRO

المؤتمر الإسلامي
السكرتارية العامة : ١١ شارع حسن صبري
الزمالك بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

عقد بيع
حقوق تأليف ونشر كتـــاب

انه في يوم الخميس الموافق ١٣ يونيه سنة ١٩٥٧ .
حرر هذا العقد بين كل من :

١) السيد الاستاذ احمد عبد الغفار بصفته السكرتير العام المساعد للمؤتمر الاسلامي
١١ شارع حسن صبري بالزمالك بالقاهرة .... (طرف اول)

٢) السيد الدكتور طه حسين المقيم بشارع حلمية الاهرام بالهرم .. (طرف ثان)

بما أن السيد الدكتور طه حسين قد قبل القيام بتأليف كتـاب عنوانه " مرآة الاسلام " ،

وبما ان المؤتمر الاسلامي ممثلا في السيد الاستاذ احمد عبد الغفار قد ارتضى شراء حق التأليف والنشر لهذا الكتاب ، فقد تم الاتفاق على ما يأتي : ــ

اولا ــ قبل الطرف الثاني أن يؤلف كتابا عنوانه " مرآة الاسلام " يتناول فيـــه الموضوعـات الآتيـة :

١ ــ صورة للحياة الاسلامية أثناء ظهور الاسلام ممثلة في سيرة الرســـول عليه الصلاة والسلام وسيرة المسلمين أيامه .
٢ ــ صورة للاسلام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ممثلة في حيـــاة الخلفاء الراشدين وسيرتهم .
٣ ــ صورة للاسلام أيام الملك .
٤ ــ صورة للاسلام كما صوره العلماء المسلمون وغير المسلمين .

ويقع هذا الكتاب في ٣٠٠ صفحة من الحجم الكبير .

٤ – نص العقد المبرم بين طه حسين والمؤتمر الإسلامي .

ثانيا ـ يتعهد الطرف الثانى بأن يتم تأليف هذا الكتاب ويسلم أصوله الى الطرف الاول فى موعد أقصاه ٣١ مارس سنة ١٩٥٨ ، فاذا لم يحدث ذلك فى الميعاد المتفق عليه جاز فسخ هذا العقد . على أنه من الممكن بموافقة كتابية من الطرف الاول أن يمد هذا الأجل بعد التاريخ المحدد لنهايته فى حالات الضرورة القصوى .

ثالثا ـ قبل الطرف الأول شراء حقوق تأليف ونشر هذا الكتاب ، وله فى سبيل ذلك أن يقوم بترجمته لأية لغة وأن يقوم هو أو من ينيبه عنه بطبعه ونشره أى عدد من المرات فى خلال المدة القانونية دون أن يغير أو يحذف شيئا من هذا المؤلف .

رابعا ـ قبل الطرف الأول أن يدفع للطرف الثانى ـ مقابل شراء الحقوق سالفة الذكر ـ مبلغ ١٠٠٠ ج (ألف جنيه مصرى) تدفع عند تسليم أصول الكتاب الخطية كاملة .

خامسا ـ كل نزاع ينشأ من هذا العقد يكون الفصل فيه من اختصاص محكمة القاهرة الابتدائية .

سادسا ـ حرر هذا العقد من نسختين بيد كل طرف نسخة .

الطرف الأول	الطرف الثانى

(الوثيقة رقم ٨)

فإن أجزتم تفضلوا باعتبار العقد مفسوخا كأن لم [illegible]
أنه اشتركتم كما أحب وكما يحب الكتاب كما أردت أنا [illegible] بجميع
الشروط التي اتفقنا عليها
وتفضلوا بقبول أصدق التحيات
٢٩ سبتمبر ٥٨

٥ – خطاب طه حسين الذى أعلن فيه فسخ العقد .

الفهرست

رقم الإيداع	١٩٩٧/٩٢٣٨	
الترقيم الدولى	977-02-5444-4	ISBN

١/٩٧/٣٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)